الإسماعيلية

obeikandl.com

obeikandl.com

كان موت الإمام جعفر الصادق بمثابة مفترق طرق بالنسبة للشيعة .

فجعفر الصادق كان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إسماعيل ، وجعلها لابنه موسى الكاظم . وذلك بسبب وفاة إسماعيل ، كما يقول البعض ، أو كما يروي البعض الآخر : أن الإمام جعفر الصادق علم أن ابنه إسماعيل يشرب الخمر ، فكان ذلك سبب عدوله عن الوصاية له .

ومهما كان الأمر ، فقد انقسمت الآراء حول الإمامة ، فنرى قسماً من الشيعة يؤمن بانتقال الإمامة من جعفر إلى ابنه موسى ، أما القسم الآخر فقد تمسك بإمامة إسماعيل ، فعُرف هؤلاء باسم الإسماعيليين .

وفي هذا الشأن يقول البغدادي في " الفرق بين الفرق " :

" ... وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل ، وافترق هؤلاء فرقتين :

- فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر ، مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة أبيه .

- وفرقة قالت : كان الإمام بعد جعفر سبطه محمد بن إسماعيل بن جعفر ، حيث إن جعفراً نصب ابنه إيماعيل للإمامة بعده ، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل ، وإلى هذا القول مالت الإسماعيلية الباطنية " .

وقد عرفت الإسماعيلية أيضاً بالباطنية بعد أن دعا زعماء هذه الفرقة ومفكروها إلى تفسير القرآن والسنة تفسيراً باطنياً ، إلى جانب التفسير الظاهري المعروف .

وجعلوا التفسير الظاهري والباطني وحدة واحدة ، بحيث إذا آمن الإنسان بأحدهما فقط يكون قد خرج عن الدين . ثم يذهبون إلى أن التفسير الباطني هو من اختصاص الإمام وحده ، الذي ورث هذا العلم عن آبائه وأجداده الأئمة ، حتى يصلون إلى علي ابن أبي طالب ، الذي خصه الله بهذا التأويل الباطني .

وكان من طبيعة الأمور أن يقدم الإسماعيلية نظرية يؤسسون عليها مذهبهم ، ويدعون الناس للإيمان بها . وعن مجمل هذه النظرية يقول برنار لويس في كتابه "الحشاشون" : " ... فبالنسبة للورع والتقوى ، قدم الإسماعيليون احتراماً للقرآن والسنة والشريعة لا يقل عن احترام أهل السنة ، وبالنسبة لأهل الذكاء والفطنة قدموا تفسيراً فلسفياً للكون ، استمدوه من مصادر القدماء وخاصة الفكر الأفلاطوني الجديد ... " .

أما ابن الجوزى فيقول عن الإسماعيلية فى كتاب " العقائد والديانات " : " نسبوا إلى زعيم لهم يقال له محمد بن إسماعيل بن جعفر ، ويزعمون أن دور الإمامة انتهى إليه لأنه سابع واحتجوا بأن السموات سبع والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبعة فدلَّ على أن دور الأئمة يتم بسبعة " .

وكان أهم ما ميز الدعوة الإسماعيلية ، هذا " التنظيم السري " القوي ، الذي قام بحركة نشطة ودؤوبة في أرجاء العالم الإسلامي ، أدت إلى إنشاء دولة سيطرت في فترة من فترات تاريخها على : شمال إفريقية ، ومصر ، والشام ، وصقلية ، والشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر ، والحجاز بما فيه مكة والمدينة ، واليمن وعمان والبحرين والسند .

وقد تكوَّن هذا التنظيم من مجموعة من الدعاة ، كلف كلاً منهم بمهمة معينة ، تؤدي في النهاية إلى نشر المذهب الإسماعيلي ، وتنصيب الإمام الإسماعيلي إماماً وخليفة على جميع البلاد .

وقد قام زعماء الدعوة الإسماعيلية بتقسيم العالم الإسلامي إلى اثني عشر قسماً ، وأسموها جزائر ، وجعلوا لكل قسم أو جزيرة رئيساً يشرف على شئون الدعوة ، وكانوا يطلقون عليه لقب " الداعي المطلق " ، وجعلوا له ثلاثين داعية آخرين يعاونونه في أداء مهمته .

وكان بطبيعة الحال أن يأتي الإمام على رأس هذا التنظيم ، ثم يلي الإمام أحد عشر مرتبة أخرى ، وهي " الباب " ، فـ " الحجة " ، فـ " داعي الدعاة " ، فـ " داعي البلاغ " ، فـ " النقيب " ، فـ " الداعي المأذون " ، أو " المأذون " ، الذي يليه " الداعي المحدود " أو " المحصور " ، فـ " الجناح الأيمن " ، فـ " الجناح الأيسر " ، فـ " المكاسر " ، فـ " المستجيب " .

ويربط الإسماعيليون أفكار مذهبهم ربطاً متسقاً متسلسلاً ، فنراهم يؤمنون بأن الله واحد ، ويؤكدون وحدانية الله من خلال تنزيهه تنزيهاً مطلقاً ، ينفي عنه الصفات التي يتصف بها البشر ، والمرتبطة بالحس الإنساني . وعلى المنوال نفسه ينفون أن الله خلق مخلوقاته عن طريق الفيض ، ويقولون أن الله خلق المخلوقات عن طريق الإبداع . فقد أبدع ما يسمى بـ " العقل الكلي " ، الذي يعتقدون أنه هو الخالق أو المبدع الأول ، الذي أبدع " النفس الكلية " ، وعن طريق " العقل الكلي " و " النفس الكلية " ، تمت عملية خلق المخلوقات .

ويُضفي الإسماعيليون تلك الصفات ، التي نفوها عن الذات الإلهية ، وهي صفات الله في نظر أغلبية المسلمين ، على هذا " العقل الكلي " .

ثم ينقلون هذه الصفات إلى الإمام ، الذي هو مركز دعوتهم وعقيدتهم .

أما تأسيس الدعوة الإسماعيلية فيرجعه البغدادي إلى رجل يدعى ميمون القداح ، الذي كان مولى للإمام جعفر الصادق ، فلما مات ميمون حل محله في قيادة الدعوة ابنه وساعده الأيمن عبد الله بن ميمون ، وقد اتخذ عبد الله منطقة الأهواز مركزاً لدعوته ، ثم انتقل بعد ذلك إلى البصرة ، ومنها إلى قرية " سلمية " بالشام ، التي دخلت التاريخ على أنها مهد الدعوة الإسماعيلية .

وينقسم تاريخ الدعوة الإسماعيلية إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى كانت فيها الدعوة سرية ، وقد عرفت باسم " دور الستر " . وفي هذه المرحلة كان أئمة الإسماعيلية يقيمون " بسلمية " بالشام ، ومنها وجهوا دعاتهم إلى المناطق الأخرى ، ليدعوا الناس إليهم سراً .

أما المرحلة الثانية فكانت مرحلة جهر الأئمة بالدعوة ، وهي مرحلة بدأت بظهور " عبد الله المهدي " ، الذي انتقل إلى شمال أفريقية وواصل نشاطه ، فاستمال إليه بعض القبائل ، فناصرته حتى استطاع في النهاية تأسيس دولة تؤمن بالمذهب الإسماعيلي ، هي الدولة الفاطمية ، وكان ذلك في عام 297هـ .

وقد خرج من عباءة الدعوة الإسماعيلية حركة مذهبية ثورية أخرى ، هي تلك الفرقة التي عُرفت بالقرامطة . التي تنتسب إلى أحد زعمائها وهو : حمدان بن الأشعث قرمط ، الذي تزعم حركة القرامطة في العراق . الذي يُروى عنه اتصاله بعبد الله بن ميمون بوصفه حجة في مذهبه ، وأنه كان على اتصالٍ بالأئمة الإسماعيلية في سلمية ويأتمر بأمرهم .

وكان للقرامطة فرقة أخرى في البحرين ، وكان أشهر زعمائها الحسن بن بهرام الجنابي ، ثم أبو طاهر الجنابي ، الذي كانت له أيضاً علاقة متينة بالإسماعيليين ، وكان يأتمر بأمرهم ، كما ظهرت فرقة أخرى للقرامطة في القطيف وجنوبي البصرة .

***

الخليفة المهدى

158هـ - 169 هـ

لما شعر أبو جعفر المنصور بدنو أجله أوصى ابنه المهدي بالوصية التالية :

" ... احفظ يا بني محمداً ﷺ في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك . وإياك والدم الحرام ، فإنه حوبٌ عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم . والزم الحلال ، فإن ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل . وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأزجر من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه . واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه ، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَن سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 33] . فالسلطان يا بني حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه وحصنه ، وذُب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، وأقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن . واحكم بالعدل ولا تشطط ، فإن ذلك أقطع للشقي وأحسم للعدو وأنجع في الدواء . وعف عن الفيء ، فليس بك صلة إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة . وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية . واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمن السبل ، وخص الواسطة ، ووسع المعاش ، وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم ، وأعد الأموال واحزمها . وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهي من شيم الزمان . وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت . وإياك وتأخير عمل

اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع . جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأول ، واجتهد وشمر فيها ، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل . وباشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ . هذه وصيتي إليك ، والله خليفتي عليك " .

ومن وصايا الخليفة المنصور لولي عهده المهدي أنه قال :

" يا بني إني قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها ، ولست أخاف عليك إلا أحد رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى ، فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته ، ووالله لو لم يكن إلا أن يقول قولاً لما خفته عليك ، فأخرجه من قبلك . وأما عيسى بن زَيد فأنفق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالي ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ، ثم لا ألومك " .

***

وبعد وفاة الخليفة أبي جعفر المنصور سنة 158هـ ، يرتقى محمد المهدي عرش دولة الخلافة العباسية ، وكانت فترة خلافة المهدي من الفترات الهادئة في تاريخ الدولة العباسية .

فقد اتبع المهدي سياسة مغايرة لسياسة أبيه ، التي اتسمت بالشدة . فأظهر المهدي اللين للرعية ، وأمنهم ، وأفرج عن المسجونين ، كما اتبع سياسة مهادنة تجاه العلويين . حتى وصفه السيوطي بأنه كان " جواداً ممدوحاً " ، وأيضاً بأنه كان " محباً للرعية " .

وقد خطب المهدي في الناس بعد وفاة أبيه فقال ، وهو يربط بين طاعة الرعية له وعدله بهم :

" ... أيها الناس ، أسروا ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية ، وتحمدوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم ، وطوى إصر عنكم ، وأحال عليكم

السلامة من حيث رآه الله مقدماً لذلك ، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم " .
ومع لين خلق المهدي ، كانت له شدة وبأس ، ولم يألُ جهداً في حربه لمن عرفوا بالزنادقة ، حتى إنه أنشأ جهازاً خاصاً لملاحقتهم .

المقنع الطائر

وكان الخليفة المهدي أكثر بني العباس محاربة للزنادقة وأشد وطأة عليهم حتى إنه أنشأ ديواناً خاصاً لملاحقتهم . وكان استئصال شأفة الزنادقة شغل الخليفة الشاغل حتى إنه أوصى ابنه فقال : " يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ــ يعني أصحاب ماني ــ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النار والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله ، لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمر بقتل صاحب الاثنين " .
وفي عهد المهدي ظهر رجل غريب الأطوار في إحدى قرى خراسان ، اتخذ قناعاً من ذهب كي يخفي به قبح وجهه ، أو ليحجب نوره عن الناس حتى لا يحترقوا به ، وبذا اشتهر بالمقنع الخراساني .
وقد زعم المقنع حلول الله فيه ، وأمر أتباعه بالسجود له ، ورفع عن الناس التكليف بالفرائض كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وأباح لهم المال والنساء . واتبعه خلقٌ كثير .

ثم أخذ المقنع في مهاجمة جيرانه من العرب ونهبهم . واستطاع هزيمة جيوش المهدي عدة مرات . وفي النهاية استطاع جيش ضخم للمهدي النفاذ إلى حصن المقنع وهزيمته . فقام المقنع بحرق حصنه وتدمير كل ما به . ثم أمر من معه بإلقاء أنفسهم في النار كي يرتفعوا إلى السماء ، ولما لم يطيعوه سقاهم شراباً مسموماً ، ثم أتى بتنور وضع فيه محلولاً كيماوياً ، وألقى نفسه فيه – زاعماً أنه صاعد للسماء – فذاب جسده ، وبذلك شاع أنه طار في السماء .

***

obeikandl.com

مَتَى أَفْلَحَ خَلِيْفَةٌ لَهُ أُمٌّ

اغتيال الخليفة الهادي

169 – 170 هـ

ويخلف موسى الهادي أباه المهدي ، ولكن خلافته لم تدم لأكثر من 14 شهراً .

ولما كان موسى الهادي على غير طباع أبيه ، فقد اتبع أيضاً سياسة مغايرة لسياسة أبيه ، فبينما نرى أباه المهدي يحسن معاملة العلويين نجد موسى يأخذهم بالشدة ويقسو عليهم ، فتسبب ذلك في ثورتهم عليه ، فأصدر الخليفة أمره بمحاربتهم والقضاء على ثورتهم . فجرت معركة بين جيش الخليفة وبين الثائرين من العلويين ، انتهت بهزيمتهم في موضع يقال له " فخ " بين مكة والمدينة ، عام 169هـ .

وكان من نتائج هذه المعركة أيضاً مقتل زعيمين علويين هما الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، والحسن بن محمد النفس الزكية ، وكذلك فرار زعيمين آخرين، أحدهما إدريس بن عبد الله بن الحسن ، الذي هرب إلى المغرب ، وأنشأت هناك دولة تسمت باسمه هي دولة الأدارسة ، أما الآخر فكان يحيى بن عبد الله ، الذي سيكون له شأن مع الخليفة هارون الرشيد .

ومما يُروى عن رباطة جأش الخليفة موسى الهادي ؛ أنه تعرض لمحاولة اغتيال على يد أحد الخوارج ، الذي هاجم الخليفة ، الذي كان بمفرده ، ولكن سرعان ما تمالك الخليفة نفسه ، فاحتال على ذلك الخارجي ، فصاح : " ... اقتلاه ... " ، فظن الخارجي أن هناك من سيهاجمه ، فارتبك ، فهجم عليه موسى واستطاع انتزاع سيفه وقتله .

وبالرغم من شدة الهادي ، وحزمه ، إلا أنه لم يستطع مواجهة نفوذ أمه أو الحد منه .
وقد كانت الخيزران – أم الخليفة – تتمتع بقوة الشخصية وسعة الحيلة والطموح .
ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الخيزران هي التي دبرت اغتيال ابنها الخليفة .
وقد كانت الخيزران في أول خلافة موسى تفتأت عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد أو بالأمر والنهي ، فأرسل إليها محذراً : " ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك " .
وقد يرجع إغتيال الخيزران لابنها لسببين ، أحدهما هو إقدام الخليفة الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد والبيعة لابنه ، الصبي الصغير السن .
والآخر هو محاولة الهادي الحد من نفوذ أمه .
ويجمل ابن الأثير هذه المسألة فيقول :
" ... وقيل إن وفاته كانت من قبل جوارٍ لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله ، وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولي الخلافة كانت تستبد بالأمور دونه ، وتسلك به مسلك المهدي ، حتى مضى أربعة شهور ، فانثال الناس إلى بابها ، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها ، فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً ، فقالت : لابد من إجابتي إليه ، فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك . فغضب الهادي ، وقال : ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك .
قالت : إذن والله لا أسألك حاجةً أبداً .
قال : لا أبالي والله .
وغضبت فقامت مغضبة ، فقال : مكانك والله ، وإلا أنا نفيّ من قرابتي من رسول الله ﷺ ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح على بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو

مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ! وإياك ! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي ... " .

فلما احتدمت المواجهة بين الخليفة وأمه ، حاول موسى اغتيال الخيزران ، فبعث إليها بطعام مسموم ، فلما همت الخيزران بالأكل منه حذرها خدمها من ذلك ، وقالوا :

"... أمسكي حتى تنظري ! ". فجاءوا بكلب ، فأطعموه ، فسقط لحمه لوقته ، فأرسل إليها : كيف رأيت الأرز ؟ قالت : طيباً . قال : ما أكلت منها ، ولو أكلت منها لاسترحت منك ، متى أفلح خليفةٌ له أم " .

وتنتهي هذه المواجهة لصالح الخيزران ، وابنها هارون ، فقد استغلت الخيزران مرض ابنها موسى ، وتآمرت مع بعض جواريها ، فدخلن عليه ...

" ... فقتلنه بالغم والجلوس على وجهه ، فمات ... " .

***

opeikandl.com

انقلاب سياسي بقيادة الخليفة

هارون الرشيد

170 – 193 هـ

كانت وفاة موسى الهادي في عام 170هـ ، فتولى مكانه في العام نفسه أخوه هارون الرشيد . ويصف السيوطي هارون الرشيد بأنه كان : "... يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ... " . ويقول عنه أيضاً إنه كان :

" ... يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، سيما إذا وُعِظ . وكان يحب المديح ويجيز عليه الأموال الجزيلة ... " .

وقد شهدت فترة حكم هارون الرشيد – التي امتدت حتى عام 193هـ – تحولات سياسية داخلية عظيمة . فقد سبق أن رأينا الدور الحاسم الذي لعبه الفرس في إقامة الدولة العباسية ، وكان بطبيعة الحال أن يعظم دورهم – بعد ذلك – في إدارة شئون الدولة . ولم يتأثر دور الفرس بتصفية زعمائهم من أمثال أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني ، بل إن هذا الدور نما وتزايد حتى بلغ أوجه في السنوات الأخيرة السابقة على تولي هارون الرشيد للحكم .

وهو ما تبلور في التعاون السياسي الوثيق بين الخيزران ، زوجة الخليفة المهدي ، وأم الخليفتين الهادي والرشيد ، وبين تلك الأسرة الفارسية ، التي عرفت بالبرامكة .

وكان أول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك ، فقد اتصل بمحمد ابن علي ثم بإبراهيم الإمام ، وكان يعد من رجال الدعوة العباسية البارزين . وقد عهد إليه الخليفة أبو العباس السفاح بديواني الخراج والجند . وقد حافظ خالد بن برمك على مكانته كواحد من أكبر رجالات الدولة العباسية حتى عهد الخليفة المهدي ، الذي

كلفه بتربية ابنه هارون ، فلما توفي حل مكانه يحيى بن خالد البرمكي . وقام أيضاً على أمر هارون حتى صار خليفة .

وقد اتصل خالد ثم ابنه يحيى بالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الخليفة هارون الـرشيد ، وحسنت الصلة بينهم ، وقام بينهم أيضاً تعاون سياسي وثيق .

وقد استطاع يحيى البرمكي وولداه الفضل وجعفر السيطرة التامة على شئون الدولة العباسية إبَّان حكم هارون الرشيد .

فنرى هارون بعد توليه الحكم يستدعي يحيى البرمكي ويقول له : "يا أبتِ أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، وأسقط من رأيت ، فإني غير ناظر معك في شيء " .

ولكن بوفاة الخيزران يفقد البرامكة دعامة أساسية لنفوذهم المتعاظم ، الذي جعل رجال البلاط الآخرين يحقدون عليهم ويحسدونهم ، فيسعون للوقيعة بينهم وبين الخليفة . فكانت وفاة الخيزران ووشايات خصوم البرامكة من ضمن أسباب عديدة أدت إلى إجهاز الخليفة هارون على البرامكة ، فقد استشعر الخليفة نفسه مدى قوة نفوذ البرامكة ، وإحكام سيطرتهم على شتى أمور الدولة ، فخاف على سلطانه منهم .

ويضاف إلى ذلك سبب آخر وهو أن البرامكة كانوا يميلون للعلويين ، وقد وقعت حادثة يقال إنها السبب في انقلاب الخليفة على البرامكة . فقد اعتقل الزعيم العلوي يحيى بن عبد الله ، ثم أسلمه إلى جعفر البرمكي ليحبسه عنده ، ولكن جعفر أطلق سراحه ، فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة .

وهناك سبب آخر يشبه الروايات الأسطورية :

فقد كان لهارون الرشيد أخت تدعى العباسة ، وكان هارون يحب أخته العباسة ولا يصبر على فراقها ساعة ، ولما كان لا يطيق فراق جعفر البرمكي أيضاً ؛ واتته فكرة

غريبة ، فاستدعى جعفر وقال له : " ويحك يا جعفر ، إنه ليس في الأرض طلعة أنا آنس ولا أميل إليها ، وأنا أشتد استمتاعاً وأنساً مني برؤيتك ، وإن للعباسة أختي موقعاً ليس بدون ذلك ، وقد نظرت في أمري معكما فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها ، وكذلك حكمي منك في يوم كوني معها دونك ، وقد رأيت شيئاً يجتمع لي به السرور وتتكاثف لي به اللذة والأنس ..." .

وهكذا شرح هارون الرشيد ذلك الأمر لجعفر ، ومهد له طرح فكرته عليه ، وهي عبارة عن زواج صوري بين جعفر والعباسة حتى يستطيع مجالستهما معاً ، فيقول له : " وقد زوجتكما تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها في مجلس أنا معكما فيه " .

وتم للخليفة ما أراد ، ولكنه لم يكن يريد يقيناً أن تتطور العلاقة بين جعفر والعباسة .

فقد حدث أن وقعت العباسة في هوى جعفر بن يحيى البرمكي ، فأرسلت إليه تبثه هواها ، ولكن جعفر لم يشأ العبث بأهل الخليفة ، ورفض التجاوب مع العباسة . إلا إن العباسة اتصلت بأم جعفر وصارت تستميلها إليها ، حتى خضعت لها ، فتم ترتيب لقاء بين العباسة وجعفر ، فواقعها جعفر وهو ثمل ، لا يدري من أمرها شيئاً . وكان نتيجة هذا اللقاء طفل ، حرصت العباسة على إخفاء أمره . إلا إنه سرعان ما عُرف السر وذاع ، حتى وصل إلى سمع الخليفة ، فجنَّ جنونه ، وصمم على الثأر لشرفه . فأصدر أوامره بقطع رأس صديقه ووزيره جعفر بن يحيى البرمكي ، ثم صلب جثته ، ثم أُحرقت .

أما يحيى ، أبو جعفر ، فقد حبسه الرشيد ، وصادر جميع أموالهما .

وقد سار الرشيد على نهج أبيه وجده فى محاربة الزنادقة فعندما تنامي إلى علم الخليفة هارون ، أن الشاعر صالح بن عبد القدوس قد صنع أبياتاً يهجو بها النبي ﷺ ، ويذم زواجه من زينب بنت جحش ، بعد فراق مولاه زيد لها أمر الخليفة هارون بالقبض على صالح في الحال ثم زج به في السجن . حتى جاء يوم محاكمته ، ووقف صالح بن عبد

القدوس أمام الخليفة يدفع عن نفسه التهم ، ثم أخذ يستعطف الخليفة حتى رق لحاله .
ولكن الخليفة هارون تذكر أبياتاً صنعها صالح فسأله أن ينشدها فقال :

لا يَبْلُغُ الأعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أخْلَاقَهُ ... حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إذَا ارْعَوَى عَادَ إلَى جَهْلِهِ ... كَذَا الضَّنَا عَادَ إلَى نكْسِهِ
وَإنَّ مَنْ أدَّبْتهُ فِي الصِّبَا ... كَالعُوْدِ يُسقى المَاء فِي غرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُوْرِقاً نَاضِرَاً ... مِن بَعدِ مَا أبْصَرَت مِن يبسِهِ

وكان أن طلب الخليفة من الشاعر تكرار البيت القائل :

وَالشَّيْخُ لا يَتْرُكُ أخْلَاقَهُ ... حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

فلما أعاده عليه قال له : " نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً.. "
وهكذا أقام الخليفة الحجة على الشاعر ولم يجد بداً من عقابه وضرب عنقه.
وقد قال صالح بن عبد القدوس :

عَزَاؤُكَ أيُّهَا العَيْنُ السَّكُوْبُ ... وَدَمْعُكَ إنَّهَا نوبٌ تَنُوْبُ
عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ فَمَا لِشَيْخٍ ... ضَرِيْرٍ فِي الدُّنْيَا نَصِيْبُ
إذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَابْكِ بَعْضَاً ... فَإنَّ البَعْضَ مِن بَعْضٍ قَرِيْبُ

***

اغتيال الإمام السابع

موسى الكاظم

بعد موت الإمام جعفر الصادق ، آلت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم ، الذي تعده " الشيعة الإمامية " إمامها السابع .

وبالرغم من الزهد الذي اشتهر به هذا الإمام ، إلا إنه سجن عدة مرات .

ومما يروى من أسباب سجن موسى الكاظم أن الخليفة هارون الرشيد قصد الحج ذات مرة ، ووقف في مسجد النبي وهو يقول : " السلام عليك يا رسول الله ، يا بن عمي" . فإذا صوت آخر يأتيه من خلفه يردد : " السلام عليك يا رسول الله ، يا أبتِ" .

فنظر هارون فإذا بموسى الكاظم خلفه . وبالطبع غضب هارون لادعاء موسى بأنه أقرب صلة للرسول ﷺ من الخليفة العباسي ، فأمر بالقبض عليه والزج به في السجن ، حيث كانت نهايته بالاغتيال في عام 183هـ .

فيُروى أن بعض الخدم دخلوا على موسى في سجنه ولفوه في بساط ، ثم جلسوا على وجهه حتى مات كما يروى أيضاً أنه اغتيل بالسم . كما يروى المسعودي .

***

الإمام الشافعي

ومن الأئمة الذين عاصروا الخليفة هارون الرشيد كان الإمام الشافعي .

وكان الشافعى قد ولد بغزة بفلسطين يوم وفاة الإمام أبي حنيفة النعمان " ... فقال الناس مات إمام وولد إمام . وقد نشأ الشافعي فقيراً إلا إنه كان ذكياً نافذ البصيرة قوي الملاحظة ، وهو يلمح إلى ذلك فيقول :

" كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا ، ولقد كنت ـ قبل أن يفرغ المعلم من الإملاء ـ قد حفظت جميع ما أملى ... " .

ثم ارتحل ـ مع أهله ـ إلى مكة وهو ما زال طفلا صغيراً .

ثم خرج الشافعي من مكة قاصداً البادية باحثاً عن العلم وبعد سبعة عشر عاماً عاد الشافعي إلى مكة لينفع الناس بما تعلمه . وكان أن قابله أحد أقاربه فقال له : " يا أبا عبد الله عز علي ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون سدت أهل زمانك ... " ، فسأله الشافعي عمن يعلمه الفقه ، فقال : " مالك بن أنس " .

وعكف الشافعي يدرس كتاب " الموطأ " للإمام مالك فحفظه بعد أيام وبعد أن تزود الشافعي بعلم الإمام مالك توجه إلى كل فقيه بالمدينة يأخذ عنه ، فلما جمع علم المدينة مضى إلى العراق ولزم محمد بن الحسن . ثم عاد إلى المدينة وتوجه ثانية إلى مكة .

وهكذا صار الشافعي يسعى وراء العلم أينما كان ، وقد قال في ذلك الإمام أحمد بن حنبل : " الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : في اللغة ، وأخلاق الناس ، والمعاني ، والفقه " .

ويصف أحدهم مجلسه فيقول : " ما رأيت مثل الشافعي ، كان أصحاب الحديث يجيئون إليه ويعرضون عليه غوامض علم الحديث فكان يوقفهم على أسرار لم يقفوا عليها ، فيقومون وهم متعجبون منه ، وأصحاب الفقه الموافقون والمخالفون لا يقومون إلا وهم مذعنون له ، وأصحاب الأدب يعرضون عليه الشعر فيبين لهم معانيه " .

وقال آخر إن الإمام الشافعي " ... يجلس في حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وأتى أهل الحديث يسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة بالمذاكرة والنظر ، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا ، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف رضي الله عنه ، وتفوق الشافعي على أستاذه ومعلمه في الفقه والحديث أنه خطأه وأنشأ في ذلك كتاباً أسماه " خلاف مالك " .

وكان الشافعي قد ألف في مطلع حياته كتاباً أسماه " الرسالة " بيَّن فيه أركان مذهبه القائم على الأخذ بالقرآن والسنة والإجماع والقياس .

ووضع الشافعي كتاباً جليلاً آخر هو كتاب " الأم " .

وعن علم الشافعي وفضله يقول الإمام أحمد بن حنبل : " ... الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن " .

ويقول أيضاً : " ما من أحد بيده محبرة إلا وللشافعي في رقبته منة " .

وعن لقائه بالخليفة العباسي هارون الرشيد يروى الإمام الشافعي :

" ... ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن وكان بها وال من قبل الرشيد ، وكان ظلوماً غشوماً ، وكنت ربما آخذ على يديه وأمنع من الظلم. وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا ، فكتب الوالي : وإني أخاف أن يخرجوا وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي . فكتب إليه هارون الرشيد : أن أحمل هؤلاء وأحمل الشافعي معهم ، فقرنت معهم " .

ولكن فيما يبدو شاء الوالي الخلاص من الشافعي . إلا إن الشافعي كان يحب حقاً آل بيت النبي ﷺ كما كان الخلفاء الراشدون الأربعة موضع تقديره أيضاً .

ويستكمل الشافعي قصته مع الخليفة ، فيقول :

" فلما قدمنا على هارون الرشيد أدخلت عليه وعنده محمد بن الحسن . فدعا هارون الرشيد بالنطع والسيف ، وضرب رقاب العلوية ، ثم التفت محمد بن الحسن فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطلبي لا يغلبنك بفصاحته فإنه رجل لسن .

فقلت : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنك الداعي وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد مني ولست القادر على ما أريد منك .

يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين ، أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده ، أيهما أحب إلي ؟

قال : الذي يراك أخاه .

قلت : فذاك أنت يا أمير المؤمنين .

فقال لي : كيف ذاك ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ترونا إخوتكم وهم يرونا عبيدهم .

فسري ما كان به فاستوى جالساً ، فقال : يا بن إدريس، كيف علمك القرآن ؟

قلت : عن أي علومه تسألني ؟ عن حفظه ، قد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتداءه ، وناسخه ومنسوخة وليله ونهاريه ، ووحشه وإنسية ، وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص يراد به العام .

فقال لي : والله يا بن إدريس لقد ادعيت علماً، فكيف علمك بالنجوم ؟

فقلت : إني لأعرف منها البري من البحري والسهلي والجبلي والفيلق والمصبح وما تحب معرفته .

قال : فكيف علمك بأنساب العرب ؟

فقلت : إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي ونسب أمير المؤمنين .

قال : لقد ادعيت علماً ، فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟ فذكرت موعظة لطاووس اليماني فوعظته بها ، فبكى وأمر لي بخمسين ألفاً وحلمت على فرس وركبت

من بين يديه ، وخرجت فما إن وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفاً على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه " .

وفي النهاية تاقت نفس الشافعي للقاء مصر ، فعقد العزم على الرحيل إليها والإقامة بين أهلها ، وهو يقول :

لَقَد أَصْبَحَتْ نَفْسِي تَتُوْقُ إِلَى مِصْر

وَمِنْ دُوْنِهَا قطع المَهَابَة وَالقفْر

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَلِلْفَوْز وَالغِنَى

أَسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أَسَاقُ إِلَى القَبْر

***

obeikandl.com

اغتيال الخليفة الأمين

193 -198هـ

يبدو أن جذوة الصراع بين العنصر العربي والعنصر الفارسي - داخل جهاز سلطة الدولة العباسية – ظلت متقدة ، منذ نشأت الدولة العباسية ، وقتل الوزير أبي سلمة الخلال لمحاولته نقل الخلافة إلى البيت العلوي . واستمر هذا الصراع حتى عهد هارون الرشيد ، الذي نراه ، في عام 173هـ. يعقد البيعة بولاية عهده لابنه " محمد " (الأمين) ، من زوجته العربية " زبيدة " ، مقدماً إياه على ابنه " عبد الله " (المأمون) من زوجته الفارسية "مراجل" ، وقد تم ذلك بالرغم من أن عبد الله المأمون كان أكبر سناً من محمد الأمين ، وبالرغم من أن هارون نفسه كان يدرك أن المأمون أفضل من الأمين وأولى منه بالخلافة ، وهو ما يورده السيوطي على لسان هارون ، الذي قال :

" إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة الهادي ، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع – يعني نفسه – لنسبته ، وقد قدمت محمداً عليه ، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه مبذر لما حوته يده ، يشاركه في رأيه الإماء والنساء ، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم لقدمت عبد الله عليه " .

هكذا كانت بيعة هارون لمحمد الأمين أول خطوة على طريق الصراع المرير بين ولديه : الأمين والمأمون .

ولكن الخليفة هارون لم يكتفِ بذلك ، بل إنه أقدم على خطوة خطيرة أخرى حين بايع لابنه المأمون بولاية خراسان ، فكان كالذي يضعه على رأس حزبه الفارسي . وهو ما عبر عنه الفضل بن سهل وزير المأمون ، الفارسي الأصل ، أبلغ تعبير حين قال أن المأمون " ... بين أخواله وشيعته " .

وجاءت وفاة هارون وتولى الأمين مكانه عام 193هـ بمثابة إعلان للصراع بين الأمين وخلفه الحزب العربي ، وبين المأمون وخلفه الحزب الفارسي . وقد ظل الأخوان يتنازعان الأمر حتى جاء عام 195هـ ، ليحرص الأمين على إنهاء تلك المسألة ، فيعلن البيعة لابنه الرضيع بولاية عهده بدلاً من أخيه المأمون ، بناءً على نصيحة الفضل بن الربيع ، أحد المتزعمين للحزب العربي . وعلى الناحية الأخرى يرد الفضل بن سهل (وزير المأمون الفارسي الأصل) بتحريض المأمون على حزب أخيه .

وينتهي الأمر بالفعل إلى حرب بين الأخوين ، فيلتقي جيش الأمين بجيش المأمون ، وينهزم جيش الأمين .

ويعاود الأمين الكرة ، ولكن الهزيمة تكون أيضاً من نصيبه هو ، وفي النهاية يوجه المأمون جيشه ليحاصر بغداد عام 197هـ. وفي عام 198هـ ينجح جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين في اقتحام بغداد .

ويرسل الأمين طلباً بالأمان إلى القائد هرثمة ، الذي يعطيه الأمان. ولكن القائد الآخر طاهر أبى إلا أن يستسلم الخليفة الأمين له هو . فخاف هرثمة أن يقتل الطاهر الخليفة ، فعمل على أن يهرب بالخليفة ، مستخدماً في ذلك زورقاً . ولكن أتباع طاهر يحاصرون الزورق ويغرقونه . إلا إن بعض من كان بالزورق ، ومن بينهم الخليفة الأمين ، يستطيعون السباحة حتى الشاطئ .

ولكن سرعان ما يلقي الطاهر القبض على الأمين ، ويزج به في دارٍ كان بها أحد الذين نجوا من الغرق ، الذي كان بمثابة شاهد عيان على أحداث الليلة الأخيرة في حياة الخليفة الأمين بن هارون الرشيد ، ويروي لنا هذا الشاهد التفاصيل التالية :

" ... فلما ذهب من الليل ساعة ، وإذ قد فتحوا الباب ، وأدخلوا الأمين ، وهو عريان وعليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة ، فتركوه معي . فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رجل ، فنظر في وجوهنا ، فاستثبتها ، فلما عرفته انصرف ، وإذا هو محمد بن حميد الطاهري ، فلما رأيته علمت أن الأمين مقتول ، فلما انتصف الليل فُتح الباب ،

ودخل الدار قوم من العجم معهم السيوف مسلولة ، فلما رآهم قام قائماً ، وجعل يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسي في سبيل الله ، أما من مغيث ، أما أحد من الأبناء ؟ وجاءوا حتى وقفوا على بابِ البيت الذي نحن فيه ، وجعل بعضهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً ، وأخذ الأمين بيده وسادة ، وجعل يقول : ويحكم ! أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، اللهَ اللهَ في دمي .

فدخل عليه رجل منهم ، فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدم رأسه ، وضربه الأمين بالوسادة على وجهه ، وأراد أن يأخذ السيف منه ، فصاح : قتلني ! قتلني !.

فدخل منهم جماعة ، فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته ، فركبوه ، فذبحوه من قفاه ، وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر ، وتركوا جثته .

فلما كان السحر أخذوا جثته ، فأدرجوها في جُل وحملوها ، فنصب طاهر الرأس على برج ، وخرج أهل بغداد للنظر وطاهر يقول : هذا رأس المخلوع محمد " .

***

خَلِيْفَةٌ سُنِّي ... وَخِلَافَةٌ شِيْعِيَّة

المـأمـــــــــون

198هـ – 218 هـ

يقول السيوطي عن المأمون أنه : برع في الفقه ، والعربية ، وأيام الناس ، ولما كبر عنى بالفلسفة وعلوم الأوائل ، ومهر فيها ، فجره ذلك إلى القول بخلق القرآن . وعن المأمون أيضاً يقول الفخري في " الآداب السلطانية " : كان أول من فحص منهم علوم الحكمة ، وحصل كتبها ، وأمر بنقلها إلى العربية ، وأشهرها وصل إقليدس ، ونظر في علوم الأوائل ، وتكلم في الطب ، وقرب أهل الحكمة " .

في عام 198هـ تخلص الخلافة للمأمون ، وتخلص الإدارة لوزيره الفضل بن سهل ، ويمنحه المأمون لقباً ذا مغزى ، وهو : ذو الرياستين ، أي رئاسة السيف ورئاسة القلم .

ولكن في عام 201هـ يقدم المأمون على خطوة غير مسبوقة ، ففجأة – أو هكذا يبدو – يعلن الخليفة العباسي أن ولي عهده هو : علي الرضا ، إمام الشيعة (الثامن) ، ويخرج الفضل بن سهل ليعلن ذلك على الملأ ، ويعلن استبدال الراية العباسية السوداء بالراية الشيعية الخضراء .

فما الذي دفع الخليفة إلى محاولة نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي؟ فهل كانت هذه الخطوة بمثابة إرضاء لأهل خراسان ، واعترافاً من الخليفة بجميلهم ؟

أم كان ذلك إقراراً بالأمر الواقع ، وهو انتصار الحزب الفارسي المتشيع؟

أم لاحتياج المأمون لمؤازرة هذا الحزب ، بعد أن فقد للأبد مناصرة الحزب العربي ؟

أم تم ذلك بتحايل الوزير (الفارسي – الشيعي) الفضل بن سهل ؟

أم أن الأمر كله لم يكن سوى حيلة دبرها الخليفة المأمون لتهيئة المناخ الملائم حتى يستطيع في الوقت المناسب إعادة ترتيب الأوضاع ؟

قد تفيدنا قراءة الأحداث التالية في الرد على هذه الأسئلة :

بعد عدة شهور ، وفي أول عام 202 هـ يرد أهل بغداد على محاولة المأمون بنقل الخلافة للبيت العلوي ، بخلعه من الخلافة ، وتولية عمه إبراهيم بن المهدي مكانه .

وهنا تتلاحق الأحداث بسرعة ، فعندما يعلم المأمون بخلع أهل بغداد له ، يقرر التحرك بسرعة ، ومغادرة مقر إقامته في خراسان ، والتوجه إلى بغداد .

وفي هذه الأثناء يموت فجأة كل من الوزير الفضل بن سهل ، وزير الخليفة ، والمدبر له كل أموره ، ويموت أيضاً الإمام علي الرضا ، ولي عهد الخليفة . أما عن موت الفضل ابن سهل فيروى أنه كان بالحمام ، فإذا بأربعة رجال يهاجمونه ويغتالونه ، وتهرب فرقة الاغتيال هذه ، إلا إنها سرعان ما تسقط في يد رجال المأمون ، ثم يعرض هؤلاء الأربعة أمام المأمون ، الذي يستجوبهم ، فإذا بهم يقولون له :

" أنت من أمرنا بقتله " ، على حد رواية الطبرى وابن الأثير .

بعد اغتيال الفضل ، في شعبان سنة 202 هـ ، بعدة شهور يموت أيضاً علي الرضا في صفر 203هـ ، وذلك بعد أن أكل كثيراً من العنب – الذي كان يحبه – ويقول بعض الرواة أن هذا العنب كان مسموماً ، وأن الذي دس السم للإمام علي كان الخليفة نفسه، بينما ينفي البعض الآخر ذلك ، كما جاء في رواية للمسعودي .

وفي سنة 203 هـ يقوم أهل بغداد بخلع إبراهيم بن المهدي من الخلافة . وفي أوائل العام التالي يدخل المأمون بغداد .

وبعد عدة أعوام تهب على الدولة العباسية عواصف فتنة أخرى ، لتدور رحى معركة جديدة ، لكنها كانت هذه المرة معركة فكرية . إذ يفاجئ المأمون – الخليفة المثقف– الناس بإبداء رأي اختلف عليه القوم ، بين مؤيد ومعارض .

أما هذا الرأي فكان قول المأمون : إن القرآن مخلوق .

ولعلنا نستطيع التعرف على رأي المأمون في مسألة خلق القرآن ذلك إذا ما قرأنا رسالة بعث بها إلى نائبه في بغداد ، وهي رسالة تضمنها كتاب تاريخ الخلفاء ، يقول المأمون :

" وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال الله تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف : 3] ، فكل ما جعله الله فقد خلقه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : 1] ، وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه : 99] ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وقال : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود : 1] ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ، ثم انتسبوا إلى السنّة وأظهروا أنهم أهل الحق والجماعة ، وأن مَن سواهم أهل الباطل والكفر ... " .

ولم يكن المأمون قد أرسل خطابه هذا إلى نائبه كي يخبره برأيه في خلق القرآن فقط ، وإنما لكي يقوم هذا النائب بعرض رأي الخليفة على العلماء ، ومعرفة موقفهم إزاءه .

ويقوم الرجل بعرض رأي الخليفة على العلماء ، فيقره البعض ، ويرفضه البعض ، وكان من ضمن الذين رفضوا : الإمام أحمد بن حنبل ، فأمر المأمون نائبه بإعادة " امتحان " هؤلاء العلماء مرة أخرى ، " فلم يجيبوا ولم ينكروا " ، وردوا ردوداً تتشابه أيضاً مع رد ابن حنبل ، الذي قال : " كلام الله " ، قال : " أمخلوق هو ؟ " ، قال : " هو كلام الله ، لا أزيد عن هذا " ، فلما وصلت آراء هؤلاء إلى المأمون ، رد على نائبه وقال رأيه في هؤلاء العلماء ، ومنهم رأيه في أحمد بن حنبل ، الذي قال فيه : " ... وأما أحمد بن حنبل فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى مقالته ، واستدل على جهله ... وقبل أن تحسم هذه المسألة يتوفى المأمون في سنة 218 هـ ، بعد أن حكم لأكثر من عشرين عاماً .

***

أحمد بن حنبل

وهو أحمد بن محمد بن حنبل من بني شيبان ، وكان جده حنبل بن هلال أحد ولاة بني أمية . إلا إنه كان أيضاً واحداً من الدعاة العباسيين . وقد ولد أحمد بن حنبل في مرو سنة 164 هـ ، ثم انتقل وهو رضيع مع أبيه إلى بغداد حيث توفي أبوه هناك بعد فترة قصيرة .

وهكذا نشأ أحمد بن حنبل يتيماً فقيراً . وقد ظل ابن حنبل زاهداً حتى إنه كان يعد الجلوس على الحصير نوعاً من الترف . ومع هذا كان يطمح دائماً إلى العلم فرحل إلى اليمن والشام والحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة سعياً وراء العلم وجمع الأحاديث ، فقد كان همه وكل شغله وأوقف عليه كل أمره حتى أنه جعل شعاره في حياته " مع المحبرة إلى المقبرة " .

وكان ابن حنبل قد درس فقه اللغة والحديث على يد أبي يوسف القاضي وهشيم بن بشير وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي والشافعي وصار واحداً من أئمة القرآن في بغداد وصار الناس يسعون إلى درسه . وقد قال عنه الشافعي : " أحمد إمام في ثماني خصال : إمام في الحديث، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في السنة " .

وقبل أن يغادر الإمام الشافعي بغداد قال : " خرجت من بغداد ، وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل " .

وقد أوقف أحمد بن حنبل مصدر علومه بالدين على كتاب الله وسنة رسوله وأهمل الرأي وإعمال العقل والقياس والاستحسان ، وهو يقول في ذلك :

" الدين إنما هو كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة ، يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ

وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين ، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم ، المتمسكين بالسنة والمتعلقين بالآثار لا يعرفون بدعة ولا يُطعن فيهم بكذب ولا يُرمون بخلاف ، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي ؛ لأن القياس في الدين باطل ، والرأي مثله وأبطل منه ، وأصحاب الرأي والقياس في الدين مبتدعة ضلال ، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة " .

وقد تشدد مذهبه في أمور الطهارة والنجاسة ، كما حرم الغناء وقال بوقوع الطلاق الثلاث في لفظ واحد . ويقصر الإمامة على قريش ويقول بأن الجهاد قائم مع الأئمة حتى وإن فجروا .

وللإمام أحمد كتاب أسماه " الحسن " ضمنه ثلاثين ألف حديث . قال هو عنه :

" إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه ، فإن كان فيه وإلا ليس بحجة " .

وقال أيضاً عن كتابه هذا : " عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رجع إليه " .

***

المعتزلة

يرجع الباحثون آراء " المأمون " إلى فكر الفرقة الإسلامية " المعتزلة " ، التي ظهرت إلى الوجود قبل عهد المأمون بحوالي قرن من الزمان ، حينما دب الخلاف بين الحسن البصري ، إمام أهل البصرة ، وبين واصل بن عطاء ، فاعتزل واصل الجماعة ، فكان ذلك إيذاناً بنشأة فرقة المعتزلة . وقد تبلور فكر المعتزلة في خمسة مبادئ أو أصول هي :

التوحيد : وقد ذهبت المعتزلة في سبيل توحيدها لله وتنزيهه إلى أن نفت صفاته الأزلية عنه ، مثل السمع والبصر . ورأوا أن مثل هذه الصفات الأزلية تؤدي إلى التعددية وليس الوحدانية . وقالوا أن الله لا يدرك بالحواس ، سواءً في الدنيا أو الآخرة ، وهكذا آمنوا بأن الله وحده هو القديم ، وفيما عداه فهو محدث .

العدل : وقد قدمت المعتزلة تصوراً عقلانياً عن فكرة العدل عند الله ، فرأت أن من عدل الله أنه خلق في الناس المقدرة على الإتيان بأفعالهم ، شراً أو خيراً ، وهم بذلك لا يرون أن الله يخلق للناس أفعالهم ، بل إنه جعل لهم الإرادة على إتيان ذلك ، وهم يرون بذلك مبرر وجوب الثواب والعقاب .

الوعد والوعيد : وتقول المعتزلة في ذلك أن وعد الله للمحسن حق ، وكذلك وعيده للمسيء . وهما أمران نافذان . فوعد الله لمن أطاعه بدخول الجنة لابد أن يتحقق ، ووعيده لمن عصاه بدخول النار لابد من تحققه أيضاً ، وهم بذلك يخالفون " المرجئة " الذين فصلوا الإيمان عن العمل .

المنزلة بين المنزلتين : وهو ما يعني عند المعتزلة أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ، كما أنه ليس كافراً ، بل له منزلة بين هذا وذاك .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : والمعتزلة ترى أنه يجب على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة ، وهم هنا لا يفرقون بين مجاهدة الكافر والفاسق .

المعتصم

218 –227هـ

في عام 218 هـ يتقلد المعتصم منصب الخلافة ، ليكون ثالث ابن لهارون الرشيد يتولى السلطة .

وكان المعتصم على النقيض من أخيه المأمون ، فقد كان شبه أمي ، إلا إنه كان يتمتع بقوة جسدية خارقة . ويبدو أن قوته الجسدية دفعته إلى حب الجندية . وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي دفعت المعتصم إلى استقدام الجند الأتراك والإكثار منهم ، حتى ضج أهل بغداد بهم ، فرأى المعتصم أنه من الأفضل الانتقال بجنده إلى مكان آخر ، وهكذا قام بتشييد مدينة (سامراء) التي صارت عاصمة الخلافة العباسية .

ويعد انحسار النفوذ الفارسي ، وإدخال العنصر (العسكري) التركي إلى أحد أهم مؤسسات الحكم (الجيش) ، واحداً من أهم الأحداث التي مرت بتاريخ الدولة العباسية .

وفي عهد المعتصم أيضاً استمرت الفتنة التي عُرفت بمحنة خلق القرآن ، ومما يُروى في ذلك أن المعتصم أمر بجلد أحمد بن حنبل ، فجُلد أربعين جلدة .

اغتيال الإمام التاسع محمد بن علي الرضا

ومما يُروى عن المعتصم أنه دبر مؤامرة لاغتيال الإمام الشيعي التاسع ، على نحو يذكرنا بمؤامرة اغتيال الحسن بن علي بن أبي طالب . إذ إنه أوعز إلى زوجة الإمام محمد ابن علي – وهي زينب بنت الخليفة السابق المأمون– بدس السم لزوجها ، ونفذت زينب أمر عمها الخليفة المعتصم ، واغتالت زوجها .

بعد وفاة المعتصم عام 227 هـ ؛ يتولى الخلافة بعده ابنه هارون الواثق بالله .

هارون الواثق بالله

227 – 232هـ

ويقتفي الواثق بالله أثر أبيه المعتصم وعمه المأمون ، ويستمر في امتحان العلماء بخلق القرآن ، مستنداً في ذلك إلى فكر المعتزلة ، الذين كانت لهم السيطرة المذهبية على البلاط العباسي ، حتى إن أحدهم – وهو أحمد بن أبي دؤاد كان ذا حظوة ونفوذ إبان حكم الخلفاء الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق .

ومما يرويه السيوطي في هذا المقام أن الواثق استدعى أحد العلماء إلى العاصمة سامراء وناظره ، واتصل بينهما الجدل حتى صاح به الواثق : " إنما كفرت برب صفته ما تقولونه فيه ؟ " .

ويبدو أن الواثق قد ضاق بالرجل ، فقرر قتله بنفسه ، وأمسك بالسيف وهو يقول لمن حوله :

" إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معي ، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر ، الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه ... " .

ثم أطاح الخليفة برأس الشيخ ، وأمر بصلب رأسه في مدينة بغداد ، بينما علق جسده في مدينة سامراء لمدى ست سنوات ، وعلى النقيض من التشدد الذي ذهب إليه الواثق في مذهبة الديني ، نراه على الجانب الآخر قد بدا متساهلاً في أمور حياته الشخصية ، ومما رواه الطبري في هذا أن الخليفة الواثق كان يهوى خادماً له ، فقال فيه شعراً ، منه :

حَسَنُ القِدِّ مخطفٌ ذُوْ دَلَالٍ وَدُوْ غنج
لَيْسَ لِلْعَيْنِ إنْ بَدَا عَنْهُ باللَّحْظِ منعرج

ويبدو أن الخادم كان يتدلل على مولاه الخليفة ، حتى يخاصمه فلا يكلمه ، ويفخر بذلك بين زملائه ، فلما وصل ذلك لمسامع الخليفة أنشد يقول :

يَـا ذَا الـذِي بـعَـذَابي ظَلَّ مُفْتَخِرَاً مَـا أَنْـتَ إلَّا مَـلِـيْك جار إذَا قـدَرَا
لَـوْلَا الـهَـوَى لَـتَجَارَيْنَا عَلَى قدرٍ وَإن أفِـق مِـنْهُ يَوْمَاً فَسَوْفَ تَرَى

ويروى أيضاً أن قلب الواثق قد تنازعه خادمان ، فقال في ذلك :

قَـلْـبي قَـسِـيْـمٌ بَيْنَ نَـفْـسَيْـن فَـمَـنْ رَأى رُوْحَـاً بـجِـسْـمَـيْـن
يَـغْـضَـبُ ذَا إنْ جَـادَ ذَا بالرِّضَـا فَـالـقَـلْـبُ مَـشْـغُـوْلٌ بـشَـجـويـن

وفي عهد الواثق يزداد نفوذ الجنود الأتراك ، حتى أنه عين أحدهم- ويدعى أشناس – سلطاناً . و " ... ألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً " على حد تعبير السيوطي ، فكان ذلك تسليماً رسمياً من الخليفة بسلطة العسكر الأتراك ، واستئثارهم بالنفوذ في الدولة العباسية .

وبوفاة الخليفة هارون الواثق بالله عام 232 هـ ، يكون العصر العباسي الأول قد انتـهـى ، ليبدأ عصر آخر من تاريخ دولة الخلافة العباسية الطويل .

***

المُسْتَعْجِلُ يَغْتَالُ أَبَاهُ

الخليفة المتوكل

232 – 247 هـ

بعد موت الخليفة الواثق ؛ اتفق أصحاب النفوذ والرأي في الدولة العباسية على تولية جعفر بن المعتصم ، أخي الخليفة المتوفي ، بعدما رأوا أن – محمد – ابن الخليفة السابق ، لا يصلح لهذا المنصب لصغر سنه .

وتلقب جعفر – الخليفة الجديد – بلقب المتوكل على الله . وما أن يتولى المتوكل السلطة حتى يقوم بانقلاب في اتجاهين : أحدهما مذهبي والآخر سياسي .

فأما ما يخص الانقلاب المذهبي ، فقد أنهى المتوكل عهد سيطرة فكر المعتزلة ، وأبطل ما عرف بـ " محنة خلق القرآن " ، وناصر مذهب أهل السنة.

وكما غالى المأمون في إعلاء شأن العلويين حتى أنه ذهب إلى تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، كما يقول السيوطي ، وقال بأن أفضل الخلق بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب ، نجد الخليفة المتوكل على الله أيضاً يتشدد ، ولكن في الاتجاه الآخر ، فينقلب على البيت العلوي ، ويتطرف في التعامل معهم ، حتى إنه هدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء ... " ، وحرثه وبذر مكانه البذور "، على حد تعبير ابن الأثير .

وكان المتوكل يعلن كراهيته لعلي بن أبي طالب ، ويبالغ في ذلك ، حتى أنه كان يتخذ من هيئة علي وشكله مادة للترفيه والتسلية في مجالسه بين ندمائه .

فقد روى ابن الأثير عنه أنه كان يستمتع بعرض يقدمه أحد ندمائه ، يقوم فيه بتقليد علي بن أبي طالب . وكان هذا الرجل – ويدعى عبادة المخنث – يضع وسادة على بطنه، ويكشف عن رأسه الصلعاء ، ثم يرقص أمام الخليفة المتوكل ، والناس حوله يغنون :

" قد أقبل الأصلع البطين ، خليفة المسلمين " ، قاصدين بذلك عليَّاً بن أبي طالب ، إذ كان أصلع الرأس ضخم البطن .

أما السيوطي فيخبرنا بأن يد المتوكل طالت أهل الذمة ، فهدم قبورهم وذهب إلى أن جعل على أبواب منازلهم " صور شياطين من خشب " .

أما على الصعيد السياسي ، فقد حاول الخليفة المتوكل القيام بانقلاب على أصحاب النفوذ حينذاك ، أي : قادة العسكر الأتراك ، فألقى القبض على القائد التركي " إيتاخ " وسجنه حتى مات في السجن ، وقيل في موته أنهم أطعموه ومنعوه الماء حتى مات عطشاً.كما جاء في " الكامل في التاريخ " .

ويبدو أن " إيتاخ " هذا كان ذا نفوذ قوي وسطوة عظيمة ، حتى إن الخليفة لم يستطع اعتقاله إلا بالحيلة والتآمر . ولما كانت العاصمة " سامراء " معقلاً للجنود الأتراك ، فقد عزم المتوكل على مغادرتها والانتقال إلى دمشق .

وهنا نرى مدى قوة النفوذ التركي وسيطرته ، فما أن ينتقل الخليفة إلى دمشق حتى يجبره الجند الأتراك على العودة مرة أخرى إلى سامراء ، بعد شهرين أو ثلاثة (1تاريخ الخلفاء) كما روى السيوطي ، ولم يجد الخليفة ما يقوله حيال ذلك سوى أن " هواء دمشق لم يعجبه " .

ولكن في نهاية الأمر تنقلب الأوضاع ، ويتجمع أعداء الخليفة المتوكل ، ويتآمرون على الخلاص منه . وكان من بين هؤلاء الأعداء ابن الخليفة نفسه : المنتصر .

وبالطبع كانت هناك أسباب قوية دفعت المنتصر إلى الاشتراك في مؤامرة اغتيال أبيه الخليفة المتوكل .

فقد كان للمتوكل ولد آخر يُدعى " المعتز " ، وكان المتوكل يحب أم المعتز – التي تدعى قبيحة – لدرجة جعلته يفكر في عزل ابنه المنتصر من ولاية عهده والبيعة بها للمعتز ، ابنه من قبيحة . ثم أخذ المتوكل يسخر من ابنه وولي عهده المنتصر ، ويهزأ به

في العلن . فيروي ابن الأثير أن المنتصر حضر ذات يوم أحد مجالس أبيه ، فإذا بعبادة المخنث يسخر من علي بن أبي طالب ، فغضب المنتصر وقال لأبيه :

" يا أمير المؤمنين إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك ، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه " .

فإذا بالمتوكل يهزأ بابنه أمام الجميع ، ثم يقول للمغنين :

" غنوا جميعاً :

غَارَ الفَتَى لِابْنِ عَمِّهِ رَأس الفَتَى فِي حِرِ أمِّه

ويعلق ابن الأثير على ما تقدم ، فيقول :

" فكان هذا من الأسباب التي استوجبها المنتصر قتل المتوكل " .

ويضع ابن الأثير أمامنا صورة أخرى من صور إهدار الخليفة المتوكل لكرامة ابنه المنتصر ، فيقول :

" وكثر عبث المتوكل ، قبل ذلك بيوم ، بابنه المنتصر ، مرة بشتمه ، ومرة يسقيه فوق طاقته ، ومرة يأمر بصفعه ، ومرة يتهدده بالقتل ، ثم قال للفتح : برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله إن لم تلطمه ، يعني المنتصر، فقام إليه فلطمه مرتين ، ثم أمر يده على قفاه ، ثم قال لمن حضره : اشهدوا عليَّ جميعاً أني قد خلعت المستعجل ، يعني المنتصر ، ثم التفت إليه فقال : سميتك المنتصر ، فسماك الناس – لحمقك – المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل .

فقال المنتصر : لو أمرت بضرب عنقي لكان أسهل علي مما تفعله بي .

فقال : اسقوه ... " .

ويبدو أن الجميع باتوا يترصدون الجميع ، فقد عزم المتوكل ومعه وزيره الفتح بن خاقان على الخلاص من المنتصر ، ولي العهد ، ورءوس الترك ، بينما كان المنتصر على الطرف الآخر يتربص بأبيه الخليفة ، ومعه بعض الأتراك ، منهم " وصيف " و " بغا" .

ولكن يبدو أن الأمور كانت تجري لصالح المنتصر والمتآمرين معه . فنجحوا في الإجهاز على الخليفة واغتياله .

ويصف لنا ابن الأثير واقعة اغتيال الخليفة المتوكل على الله ، فيقول : " ... فدخل بُغا الصغير إلى المجلس ، فأمر الندماء بالانصراف إلى صحبهم ، فقال له الفتح : ليس هذا الوقت وأمير المؤمنين لم يرتفع ، فقال بغا : إن أمير المؤمنين أمرني أنه إذا جاوز السبعة لا أترك أحداً ، وقد شرب أربعة عشر رطلاً ، وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة ، وأخرجهم ، فلم يبق إلا الفتح وعثعث ، وأربعة من خدم الخاصة ، وأبو أحمد بن المتوكل، وهو أخو المؤيد لأمه. وكان بُغا الشرابي أغلق الأبواب كلها ، إلا باب الشط، ومنه دخل القوم الذين قتلوه . فبصر بهم أبو أحمد ، فقال : ما هذا يا سُفَل ! وإذا سيوف مسللة ، فلما سمع المتوكل صوت أبي أحمد رفع رأسه فرآهم ، فقال : ما هذا يا بُغا ؟ فقال : هؤلاء رجال النوبة ، فرجعوا إلى ورائهم عند كلامه ، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم ، فقال لهم بُغا : يا سفل ! أنتم مقتولون لا محالة ، فموتوا كراماً ! فرجعوا ، فابتدره بغلون فضربه على كتفه وأدنه فقده ، فقال : مهلاً ! قطع الله يدك ، وأراد الوثوب به ، واستقبله بيده ، فضربها فأبانها ، وشاركه باغر ، فقال الفتح : ويلكم ! أمير المؤمنين ... ورمى بنفسه على المتوكل فبعجوه بسيوفهم ، فصاح : الموت ! وتنحى ، فقتلوه " .

***

" عَـاجَـلْـتُ أَبِـي فَـعُـوْجِـلْـتُ "

المنتصر بالله

247 – 248 هـ

ويتولى المنتصر بالله عرش الدولة العباسية ، ويأمر بعزل أخويه المعتز والمؤيد ومع ذلك لم يهنأ المنتصر بالخلافة إلا ستة شهور فقط ، فسرعان ما مات وهو لم يكمل بعد السادسة والعشرين من عمره .

ويبدو أن المنتصر ندم على قتل أبيه المتوكل ، فقد جاء في " تاريخ الخلفاء " أن المنتصر كان يسب الأتراك قائلاً : " هؤلاء قتلة الخلفاء " .

كما يخبرنا السيوطي أنه لما دنا أجل المنتصر قال لأمه :

" يا أماه ، ذهبت الدنيا والآخرة ، عاجلت أبي فعوجلت " .

أما ابن الأثير فيروى أيضاً أن المنتصر رأى أباه في منامه يقول له :

" ويحك يا محمد قتلتني وظلمتني ، وغبنتني خلافتي ، والله لا مُتعت بها بعدي إلا أياماً يسيرة ، ثم مصيرك إلى النار " .

وقد اختلف الرواة في موت المنتصر بالله ، فمن قائل إنه مات متأثراً بعلة ، ومن قائل أنه اغتيل بالسم . وهناك أيضاً من يقول أن طبيبه اشترك في مؤامرة اغتياله ، فقد فصده بريشة مسمومة ، ويروي الطبري أن : " ابن الطيفوري سمه ، وقيل إنه قطر في أذنه دهناً فتورم رأسه فمات " .

ومن الطريف أنه يُروى أن ذلك الطبيب اعتل فاستعمل نفس الريشة المسمومة في فصد نفسه ، فمات .

***

المستعين بالله

248 – 252 هـ

كان الخوف من انتقام أولاد الخليفة المتوكل على الله هو الذي دفع زعماء الأتراك إلى اختيار خليفة من غير أبناء المتوكل . فأجلسوا أحمد بن محمد بن المعتصم – الملقب بالمستعين بالله – على عرش الدولة العباسية .

ويبدو أن الزعماء الأتراك (بغا ووصيف وأتامش وباغر) حرصوا على فرض سيطرتهم التامة على أمور الدولة ، كما وضعوا الخليفة الجديد تحت هيمنتهم حتى قال أحد الشعراء في ذلك :

خَـلِـيْـفَـةٌ فِـيْ قَـفَـص بَـيْـنَ وَصِـيْـفٍ وَبَـغَـا
يَـقُـوْلُ مَـا قَـالَـهُ لَـهُ كَـمَـا تَـقُـوْلُ الـبَـبَّـغَـا

ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الأتراك أنفسهم ، ونشب بينهم صراع مرير على النفوذ .

وفيما يبدو أن القائد التركي " أتامش" كان أوفرهم حظاً وأقربهم إلى الخليفة ، فصار يتمتع بنفوذ كبير ، أثار حسد ونقمة القادة الآخرين ، وهو ما دفعهم إلى تدبير مؤامرة لاغتياله ، وبالفعل ينجحون في قتله ، ثم استولوا على أمواله .

أما سبب اغتيال زعماء الأتراك لواحد منهم ، فيرويه لنا ابن الأثير ، فيقول :

" ... أن المستعين أطلق يد والدته ، ويد أتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال ، وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة . فأخذ أتامش أكثر ما في بيوت الأموال ... " .

ثم يستعر الخلاف بين الثلاثة الآخرين من قادة الترك ، " وصيف ، وباغر ، وبغا " . فنرى وصيف وبغا يدبران مؤامرة لاغتيال باغر ، وفي الوقت نفسه نجد باغر يرسم خطة للخلاص من الاثنين ، ومعهما الخليفة المستعين .

ولكن يبدو أن وصيف وبغا كانا أسرع ، فتخلصا من غريمهما وقتلاه . وكان قتل باغر بداية لصراع جديد ، فقد ثار جماعة من الأتراك ومضوا إلى السجن ، حيث كان ابنا الخليفة المتوكل " المعتز والمؤيد " محبوسين . وقاموا بإخراجهما ، وبايعوا المعتز بالخلافة وأخاه بولاية العهد ، وكان عمر المعتز حينذاك تسعة عشر عاماً . على حد رواية السيوطي . ثم كان أن تطور الأمر إلى حربٍ بين فريقين من الأتراك ، وكل فريق منهما معه خليفة . وتنتهي الحرب بهزيمة فريق الخليفة المستعين بالله وتنازله عن السلطة للمعتز بالله بن المتوكل وأخي الخليفة المنتصر ، وهو الذي كان قد حبسه وأخاه المؤيد .

***

obeikandl.com

المعتز بالله

252 – 255 هـ

وما أن يستقر المعتز بالله في كرسي الخلافة حتى يدبر اغتيال الخليفة السابق المستعين بالله . فأرسل إليه – في منفاه – مَن يقتله .

وقد اختلفت الروايات في الطريقة التي قتل بها المستعين ، فهناك رواية تقول بأنه ضرب حتى الموت ، ورواية أخرى تقول بأنهم جعلوا في قدمه حجراً ثم ألقوا به في نهر دجلة ، كما يقال أيضاً إنه قُتل بالسيف .

ويُروى أنه بعد اغتيال الخليفة السابق ؛ اجتزت رأسه وحملت إلى الخليفة الجديد ، الذي كان في تلك اللحظة يلعب الشطرنج ، فلم يعر ذلك أدنى اهتمام ، بل استمر في اللعب حتى انتهى .

وكان الخليفة المعتز بالله قد خلع أخاه المؤيد من ولاية العهد . وانتهى أمر ولي العهد (السابق) بالاغتيال ، ويروى أنهم وضعوه في الثلج حتى مات متجمداً .

وإذا كان عام 252 الهجري قد شهد خلع الخليفة المستعين واغتياله ، وخلع ولي العهد المؤيد واغتياله أيضاً ؛ فقد شهد العام التالي واقعة اغتيال زعيم من زعماء الأتراك وهو : " وصيف " . فقد ثار عليه الجنود لتردي أوضاعهم ثم قتلوه . وفي العام التالي (254هـ) يأمر الخليفة بقتل زعيم تركي آخر هو : " بغا " ، فقتل ثم أحرقت جثته .

ويذكر السيوطي أن عام 255 هـ يشهد اغتيال الخليفة المعتز بالله بن المتوكل . ويرجع سبب اغتياله إلى عجزه عن الوفاء بمطالب زعماء الأتراك ، فقد ذهبوا إليه وطلبوا منه إعطائهم بعض الأموال ، ولكن يبدو أن بيت المال كان خاوياً ، فلجأ الخليفة إلى أمه قبيحة ، وكانت ثرية ، إلا إنها بخلت على ابنها ورفضت مده بالمال . ويروي كل من ابن الأثير والسيوطي ما فعله الأتراك بالخليفة على النحو التالي :

" ... وجروا برجله وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف ... فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ... " .

فاضطر المعتز إلى التسليم بخلع نفسه من الخلافة .

ثم ...

" ... ثم إن الملأ أخذوا المعتز بعد خمسة ليال من خلعه ، فأدخلوه الحمام ، فلما اغتسل عطش ، فمنعوه الماء ، ثم أخرج – وهو أول ميت مات عطشاً – فسقوه ماءً بثلج ، فشربه وسقط ميتاً ... " .

وكانت قبيحة ، أم الخليفة المعتز ، قد آثرت السلامة ، والهروب بحياتها ، وتركت خلفها ثروة عظيمة ، ولكنها سرعان ما ظهرت لتقع في يد زعماء الأتراك .

ومما يُروى عن ثروة قبيحة ؛ أنها سلمت أحد قادة الأتراك " ألف ألف دينار ، وثلثمائة ألف دينار ، وسقط فيه مكوك زمرد ، وسقط فيه لؤلؤ حب كبار ، وكيجلة ياقوت أحمر وغير ذلك . فقومت السفاط بألفي ألف دينار ... " .

فلما رأى هذا القائد التركي هذه الأموال والمجوهرات لم يتمالك نفسه ، فصاح : " قبحها الله عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذا ... " .

وفي هذا السياق يقول ابن الأثير :

" ... وكانت لها أموال ببغداد ، فأحضرتها ، وهي خمسمائة ألف دينار ، وظفروا بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ، ومن جملتها دار تحت الأرض ، وجدوا فيها ألف ألف دينار ، وثلاثمائة ألف دينار ، ووجدوا في سفط قر مكوك زمرد لم ير الناس مثله ، وفي سفط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار ، وفي سفط مقدار كيجلة من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله ... " .

***

ثُمَّ انْحَدَرَتْ دُمُوْعُهُ وَبَكَى

المهتدي بالله

255 – 256 هـ

بويع محمد ، المهتدي بالله ، بالخلافة عام 255 هـ ، بعد اغتيال أخيه الخليفة المعتز بالله . وكان الشعب – أو العامة بلغة ذاك الزمان – هذه المرة هو الذي رفض بيعة المهتدي بالخلافة .

وفي عهد المهتدي بالله اضطربت أمور الدولة اضطراباً عظيماً ، فلم يكن الشعب وحده هو الذي ثار على ذلك الخليفة ، بل لقد ثار عليه الجميع :

فالجنود ثاروا أيضاً عليه ، وعلى حد تعبير الطبري : في طول البلاد الإسلامية وعرضها .

أما الأتراك فقد استبدوا بكل الأمور ، حتى صار الخليفة المهتدي " ألعوبة في أيدي الأتراك " ، حتى أن الخليفة لم يملك حيال استبداد الأتراك إلا الدعاء عليهم ، كما يروي الطبري ، فيقول :

" رفع المهتدي يديه إلى السماء ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو ، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه . اللهم تولى كيد من كايد المسلمين . اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصراً لهم ودافعاً عنهم . اللهم فأجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان) . ثم انحدرت دموعه وبكى ... " ، على حد تعبير ابن جرير الطبرى .

والظاهر أن الخليفة المهتدي بالله قد بلغ من الضعف والهوان حد أنه أخذ في الإيقاع بين قادة الأتراك ، فلقد شاء المهتدي استمالة أحد زعماء الترك – ويدعى بكباك – والتآمر معه على التخلص من " موسى بن بغا " ، بعد أن ضاق به وبسيطرته على الأمور .

ولكن " بكباك " يطلع " موسى " على ما كان من الخليفة بشأنه ، فاتفق الاثنان على خلع الخليفة .

وهكذا ، جمع الأتراك أنصارهم ، والتف حول الخليفة بعض أعوانه ، لتدور رحى معركة بين الترك والخليفة ، ولتكون الهزيمة من نصيب المهتدي بالله .

ويفر الخليفة المهتدي ، ويناشد الناس مؤازرته ، ويصيح بهم : " يا معشر المسلمين ! أنا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم ... " .

ولكن هؤلاء لم يلبوا نداء خليفتهم ، وتركوه ليواجه مصيره المحتوم .

ولما يئس الخليفة المهتدي من الجميع ، لم يجد أمامه سوى المسجونين ، فاتجه إليهم ، وفتح لهم أبواب السجن ، ظناً منه أنهم سيعرفون له صنيعه بهم ، فإذا بهؤلاء أيضاً يخرجون ولا يعيرون الخليفة أدنى اهتمام .

ويقع المهتدي في أيدي الأتراك ، فيحبسونه ، ويوكلون أمر حبسه لرجل يدعى أحمد بن خاقان ، الذي يروي عنه ابن كثير أن الخليفة قد قبل يده مراتٍ عديدة .

وطالب الأتراك من المهتدي بالله خلع نفسه من الخلافة ، وكما روى الطبري أن هؤلاء بعد أن أمسكوا بالخليفة : " جعلوا يصفعونه ويبصقون في وجهه ويقولون اخلعها ، فامتنع ، فوطئ رجل على خصيتيه حتى قتله " .

وكان ذلك في رجب من عام 256 الهجري .

***

المعتمد على الله

256-279هـ

بويع المعتمد على الله – أبو العباس أحمد بن المتوكل – قبل موت الخليفة السابق (المهتدي) بيوم واحد .

ويبدو أن زعماء الأتراك قد توصلوا إلى حل للنزاع والتخاصم بين بعضهم البعض ، فاتفقوا أن يكون أميرهم غيره ، فعُين " الموفق بالله " ، أخو الخليفة ، أميراً عليهم . وصار طلحة قائداً للجيش ، ثم صارت إليه كل أمور الدولة واجتمعت في يده ، وصار هو المهيمن على السلطة طيلة عهد أخيه الخليفة المعتمد على الله .

وفي هذا المقام يقول ابن الأثير :

" وكان في خلافته محكوماً عليه ، قد تحكم عليه أخوه أبو أحمد الموفق ، وضيق عليه ، حتى إنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار ، فلم يجدها ذلك الوقت ... " .

ويقول السيوطي :

" ولم يكن للمعتمد حل ولا ربط ، وقال المعتمد في ذلك :

أَلَـيْسَ مِنَ الـعَجَـائِبِ أنَّ مِثْلِي ... يـرَى مَـا قَـلَّ مُـمْـتَـنِـعَـاً عَـلَـيْـه

وَتُـؤْخَـذُ بـاسْـمِـهِ الـدُّنْـيَـا جَـمِيْعَاً ... وَمَـا مِـنْ ذَاكَ شَـيْءٌ فِـيْ يَـدَيْـه"

ويضيف السيوطي :

" ... هو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به " .

ويبدو أن الأخين كانا على طرفي نقيض ، فبينما يصف المؤرخون طلحة بالجدية والحزم ، ينعتون الخليفة المعتمد باللهو والانغماس في الملذات ، وإهمال شئون الدولة .

والظاهر أن شخصية الموفق ، وقوة نفوذه ، وسيطرته على السلطة ؛ قد أثرت – سلبياً – على نفوذ الأتراك ، الذي تراجع وتردى في عهد الخليفة المعتمد .

إلا إنه بالرغم من ذلك ، فقد وقعت أحداث جسام خلال عهد المعتمد منها : قيام بعض الدول المستقلة ، كما سنذكر فيما بعد .

ومن أهم الأحداث فى عهد المعتمد كانت وفاة علي الهادي ، الإمام الحادي عشر لدى طائفة الشيعة الاثنا عشرية ، فظهر بعده الإمام الثاني عشر ، محمد بن علي الهادي ، وكان ذلك في عام 260 هـ .

وبظهور محمد بن علي الهادى تكون حلقة الأئمة الاثنا عشرية قد التئمت ، فمن معتقدات الشيعة الاثنا عشرية أنهم يؤمنون باختفاء الإمام الثاني عشر ، ثم ظهوره مرة أخرى ليملأ الأرض عدلاً. وهم يروون أن الإمام " محمد بن علي " – الذي كان صبياً صغيراً – قد دخل إلى أحد السراديب تحت بيته ، ولم يخرج منه بعد ذلك .

ومنذ تلك اللحظة وفرقة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية في انتظار عودة إمامهم محمد بن علي ، أي : المهدي المنتظر .

ومن أجل الحد من نفوذ الدولة الصفارية يقوم الخليفة العباسي المعتمد في عام 261 بإسناد ولاية ماوراء النهر إلى نصر بن أحمد الساماني الذي تُنسب إليه الدولة السامانية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الدولة العباسية ، وقد استمرت الدولة السامانية قائمة حتى سقطت عام 389 هـ .

***

ثورة الزنج

ومن الأحداث المهمة أيضاً ، التي وقعت في عهد المعتمد على الله ، كان الحدث الضخم والمثير ، والذي عرف باسم ثورة الزنج .

أما قائد هذه الثورة وزعيمها فكان رجلاً ظهر في شوال من عام 255 هـ بالبصرة ، وادعى انتسابه إلى على بن أبى طالب وقد عُرف باسم " صاحب الزنج " . على حد رواية ابن الأثير .

وفي كتابه " الدولة العباسية " يقول محمد الخضرى إن رجال هذه الثورة لم يكونوا سوى عبيد من إفريقيا ، كانوا يعملون في حمل " الأسباخ " إلى البصرة ، وكان هذا العمل يعد من أعمال السخرة ، إذ كان هؤلاء العبيد لا يتقاضون مقابل عملهم الشاق سوى شيء من طعام يحفظهم على قيد الحياة ، وكان هذا الطعام عبارة عن " قليل من التمر والدقيق " .

فكان أن توجه " صاحب الزنج " إلى هؤلاء العبيد ، واعداً إياهم بالحرية ، رافعاً شعار القضاء على الرق ، فكان لهذا الشعار فعل السحر في نفوس العبيد ، الذين انضموا إلى هذا الزعيم وحاربوا بشراسة تحت رايته ، وظلوا يهددون الدولة العباسية طيلة أربعة عشر عاماً ، لم تهدأ خلالها ثورتهم العنيفة ، حتى تمكن طلحة – " الموفق " – أخو الخليفة المعتمد ، من دحرهم ، وإنزال الهزيمة بهم ، وقتل زعيمهم في عام 270 هـ .

ومما يروى عن عنف هذه الثورة ، وشراسة رجالها ، قول السيوطي بأن صاحب الزنج ورجاله قد تمكنوا من قتل مليون و 500 ألف نفس خلال هذه الفترة التي بدأت قبيل تولي المعتمد ، واستمرت في معظم خلافته .

وفي أيام المعتمد أيضاً ظهرت بسواد الكوفة فرقة القرامطة الشيعية المعتنقة لمذهب الإسماعيلية المنتسبة لحمدان بن الأشعث المعروف بـ " قرمط " .

وقد اختلفت الآراء فى تفسير لقب " قرمط " ، فقيل إنه يرجع إلى أن حمدان هذا كان " يقرمط في مشيه " ، أي يقارب بين خطواته ، أو لأنه كان أحمر البشرة بلون القرميد وهناك من يقول إن قرمط كلمة آرامية تعنى المدلس والخبيث .

وفي كتابه العقائد والديانات يرجع ابن الجوزى اسم القرامطة إلى رجل : " ... من ناحية خوزستان قدم سواد الكوفة فأظهر الزهد ودعا إلى إمام من أهل بيت رسول الله ﷺ ونزل على رجل يقال له كرميتة لقب لهذا لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية حاد العين (...) فسمى كرميتة باسم الذي كان نازلاً عليه " .

وبينما يذكر ابن الأثير أن قرمط قد سار إلى الكوفة قبل قتل صاحب الزنج ، إلا إنه يتفق مع السيوطي في ظهور أمر القرامطة بأنه كان عام 278 هـ .

***

المعتضد بالله

279 هـ – 289 هـ

كان وصول أبي العباس أحمد بن الموفق إلى منصب الخليفة واحداً من أهم المؤشرات على مدى ما تمتع به أبوه " الموفق " من سلطان وهيمنة على السلطة في الدولة العباسية . فلقد اضطر الخليفة السابق المعتمد على الله إلى خلع ابنه من ولاية عهده ، والبيعة بها لابن أخيه . وهكذا صار ابن الموفق – الملقب بالمعتضد بالله – خليفة عام 279 هـ. ، وقد آثر المعتضد بالله نقل مقر الخلافة من سامراء إلى بغداد .

ويبدو أن المعتضد قد ورث الشجاعة عن أبيه ، فنراه يحرص على قمع المتمردين واحداً تلو الآخر . فقد استطاع في أوائل عام 280 هـ هزيمة بني شيبان ، وهم قوم من العرب ساءهم سيطرة الأتراك على أمور الدولة ، وقد قاد المعتضد بنفسه حملة على بني شيبان ، واضطرهم إلى الرضوخ لأمره والدخول في طاعته .

وفي العام التالي يخرج المعتضد أيضاً على رأس جيشه ليخضع حمدان بن حمدون ، الذي تحالف مع الخوارج ضد الخليفة . وقد استطاع المعتضد هزيمة حمدان ، وهدم قلعته ، وبالرغم أن حمدان استطاع الفرار إلا إن يد الخليفة طالته ، فقبض عليه وسجنه . وحمدان بن حمدون هذا هو الذي أنشئت باسمه فيما بعد الدولة الحمدانية .

ومما يدل على سعة حيلة المعتضد بالله أنه كلف ابن حمدان هذا – ويدعى الحسين – بقتال الخوارج وزعيمهم . وبالفعل يستطيع الحسين بن حمدان هزيمة الخوارج وأسر زعيمهم هارون الشاري . فكافأ المعتضد الحسين ، وصلب هارون الخارجي ، الذي كان يصرخ أثناء صلبه : " لا حكم إلا لله " ، على حد رواية السيوطي .

وعن الخليفة المعتضد يروي المسعودي :

" وكان مع ذلك قليل الرحمة ، كثير الإقدام ، سفاكاً للدماء ، شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله . وكان إذا غضب على القائد النبيل ، الذي يختصه من غلمانه أمر أن تحفر حفرةً (بحضرته) ثم يدلى على رأسه فيها ، ويطرح التراب عليه ، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ، ويداس التراب ، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره . وذُكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيُكتف ويقيد ، فيأُخذ القطن فيحشى في أذنه وخيشومه وفمه ، وتوضع المنافخ في دبره حتى ينتفخ ويعظم جسده ثم يُسد الدبر بشيء من القطن ، ثم يُفصد وقد صار كالجمل العظيم ، من العرقين اللذين فوق الحاجب ، فتخرج النفس من ذلك الموضع ... " .

ومما يُروى من نوادر القتل أن المعتضد أمر بقتل أحدهم بالإشارة :

" ... وكان المعتضد ، بعدما امتنع عن الكلام ، أمر صافياً الحزمي بقتل عمرو بن الليث بالإيماء والإشارة ، ووضع يده على رقبته وعينه بأن اذبح الأعور ، وكان عمرو أعوراً ، فلم يفعل ذلك صافي لعلمه بقرب وفاة المعتضد ، وكره قتل عمرو ، فلما وصل المكتفي بغداد سأل الوزير ، فقال : هو حيٌّ . فسُر بذلك ، وأراد الإحسان إليه ؛ لأنه كان يكثر من الهدية إليه لما كان بالري ، فكره الوزير ذلك ، فبعث إليه من قتله " .

وقد شهدت نهاية حكم المعتضد بالله ظهور قرامطة البحرين بزعامة أبي سعيد الجنابي عام 286 هـ ، وقد استطاع أبو سعيد جمع القرامطة حوله ليستولي على مدينة " هجر " بالبحرين ويجعالها قاعدة له .

وقد عظم أمر القرامطة ، واشتد خطرهم ، مما حدا بالخليفة إلى إرسال جيش لحربهم ، ولكنهم هزموا الجيش العباسي شر هزيمة ، وقتلوا منه فريقاً ، ووقع فريقٌ آخر أسرى في أيديهم ، فأمر زعيمهم أبو سعيد الجنابي بقتل هؤلاء الأسرى ، فقُتلوا ثم أحُرقوا . كما جاء فى رواية ابن الأثير .

وفي عام 289 هـ يتوفى الخليفة المعتضد بالله .

وعن موته يذكر السيوطي سبباً غريباً لذلك فيقول : " ... وكان مزاجه تغير من كثرة إفراطه في الجماع ، ثم تماسك ... ثم انتكس ومات ... " .

أما المسعودي فيقول :

" شكوا في موت المعتضد ، فتقدم إليه الطبيب وجسَّ نبضه ، ففتح عينيه ورفس الطبيب برجله ، فتدحاه أذرعاً ، فمات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته " .

***

obeikandl.com

الدولـة الطولونيـة

كان الخليفة الواثق قد أسند إدارة شئون مصر إلى " باكباك " التركي ، كما جرت العادة منذ ازدياد نفوذ الأتراك ، وكان بكباك قد تزوج أم أحمد بن طولون بعد وفاة زوجها – والد أحمد – فأرسل بكباك ربيبه أحمد بن طولون لينوب عنه فى إدارة شئون مصر . ولم يكد أحمد بن طولون يستقر في مصر سنة 254هـ ، حتى أخذ يجمع السلطة كلها في يده فبادر بعزل عامل الخراج ليصير هو الحاكم الإدارى والمالي والعسكري .

ثم سنحت له الفرصة أن يعلن استقلاله بالبلاد فى عهد الخليفة المعتمد العباسي ، عندما بعث ابن طولون بإعانة مالية للخلافة . ولكن " طلحة " ، أخا الخليفة يتهم ابن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي ، ويتهدده ويتوعده ، وكان رد ابن طولون إعلانه استقلاله بالبلاد .

وهكذا تأسست في مصر " الدولة الطولونية " على يد أحمد ابن طولون ، الذي اهتم بإعداد جيش قوى ، كما أنشأ عاصمة جديدة عوضاً عن الفسطاط وسماها "القطائع" . وأمام ما وصل إليه أحمد بن طولون من قوة، كان لابد أن تتقرب إليه الخلافة العباسية ليقف إلى جانبها في مواجهة الروم البيزنطيين ، الذين كانوا لا يكفُّون عن الإغارة من آسيا الصغري . فبعث أحمد بن طولون بجزء من جيشه وأسطوله ليرابط هناك على الحدود ، ولما توفى والي الشام التركي سنة 264هـ قام أحمد بن طولون بضم البلاد إليه مما أدى إلى وحدة مصر والشام في عهد الدولة الطولونية .

وبعد وفاة أحمد بن طولون عام 270 هـ يتولى ابنه " خُمارويه " حكم مصر سنة 273هـ ، فلا يملك الخليفة إلا أن يعقد مع " خمارويه " صلحاً اعترفت فيه الخلافة العباسية بولاية خمارويه على مصر والشام ، ولأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة .

وكان أن قطع خمارويه خطوةً أخرى نحو تعزيز نفوذه واستقلاله بحكم مصر ، فعرض على الخليفة العباسي المعتضد بالله تزويج ابنته " قطر الندى " بابن الخليفة ، لكن المعتضد آثر أن يتزوجها هو ، وهكذا تزوج الخليفة ابنة خمارويه .

وإذا كان زواج قطر الندى من الخليفة مظهراً من مظاهر قوة نفوذ الأتراك حينذاك ، فإنَّ زفافها الأسطوري يُعد دليلاً على الثراء الفاحش الذي كان عليه هؤلاء .

فمما يُروى عن الجهاز ، الذي جهَّز به خمارويه ابنته قطر الندى ، ما يقوله السيوطي بأن الجهاز كان يتضمن : " أربعة آلاف تكة مجوهرة ، وعشرة صناديق جوهر " .

وعن هذا الجهاز يروى الشيخ محمد الخضري فيقول فى كتابه " الدولة العباسية " :

" ... ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من ذهب ، ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار " .

ولما تم الجهاز أمر (خمارويه) فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصراً ، فيما بين مصر وبغداد ، وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة ، فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد ، فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فُرش فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة ، فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس ... " . أما المسعودي فيروي عن الرسول الذي سعى في إتمام هذه الزيجة ، وكان يدعى " ابن الجصاص " ، فيقول :

" ... وتولى ابن الجصاص أمرها ، وحمل جهازها ، فيقال :

إنه حمل معها جوهراً لم يتجمع مثله عند خليفة قط ، فاقتطع ابن الجصاص بعضه ، وأعلم قطر الندى بنت خمارويه أن ما أخذ مودع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه ، فماتت والجوهر عنده ، فكان ذلك سبب غناه واستقلاله ... " .

اغتيال خمارويه وابنه

بينما كان خمارويه ، حاكم مصر ، يخطط لتدعيم تفوذه ، وتأكيد استقلاله ، كان القدر قد خط له مصيراً لم يخطر على باله . فبعد عدة شهور من إتمام زفاف ابنته إلى الخليفة المعتضد ، إذا بخدم خمارويه ينقضون عليه ويذبحونه في فراشه .

وقد أرجع ابن كثير السبب في ذلك إلى أنه كان قد تنامى إلى علم خمارويه أن كل جارية من جواريه قد اتخذت لها عشيقاً من خصيان قصره ، فأمر بإحضار الجواري ليسألهن في ذلك الأمر ، فخشي الصبيان افتضاح أمرهم ، فاجتمعوا واتفقوا على اغتيال خمارويـه ، فدخلوا عليه بالليل وهو راقد على فراشه فذبحوه " .

ثم ولوا بعده ابنه ، وكان حدث السن ، وكان يُدعى "جنش" .

" ... فقرّب جنش الأحداث والسفل إليه ، فأوغروا صدره على قواده ، فخشوا على أنفسهم ، فهاجموه في داره وقتلوه هو أيضاً ، حسب رواية ابن الأثير .

***

المكتفي

289– 295 هـ

بعد وفاة أبيه المعتضد ، تولى المكتفي بالله ، ابن المعتضد خلافة المسلمين عام 289 هـ ، وامتد حكمه حوالي ست سنوات .

ولما لم يكن المكتفي في حزم أبيه المعتضد ، وجده الموفق ، فإنه سرعان ما ظهرت المؤامرات مرة أخرى في البلاط ، وتنازع رجال السلطة على النفوذ ، وقد أدى هذا الصراع إلى اغتيال قائد الجيش ، الذي كان غلاماً للخليفة المعتضد ، وكان يدعى "بدر" ، وقد اغتاله وزير المكتفي القاسم بن وهب .

وكان الوزير – أثناء حكم الخليفة السابق المعتضد – قد بيَّت النية على عدم تولية أبناء المعتضد للخلافة من بعده ، وشاء إشراك بدر هذا في مؤامرته على أولاد المعتضد ، إلا إن بدر رفض ذلك رفضاً قاطعاً ، ولم يستطع القاسم تنفيذ ما اعتزمه دون عون بدر الذي كان قائداً للجيش . فلما تولى المكتفي – ابن المعتضد – خشي القاسم أن يفشي بدر سره ، فأخذ يوغر صدر الخليفة الجديد على بدر حتى استجاب له ، وأمر بإلقاء القبض عليه ، واستغل الوزير ذلك فمضى خطوة أخرى في مؤامرته للخلاص من بدر ، فاختار رجلاً له شأن ، مستغلاً مكانة ذلك الرجل – الذي كان قاضياً – للتأثير على بدر واستدراجه بعيداً عن مركز قوته ، وبالفعل يطمئن بدر للقاضي ، ويخرج قاصداً الخليفة ، وفي الطريق ينقض عليه المتواطئون مع الوزير ، ويفصلون رأس بدر عن جسده ، ويحملونها معهم تاركين جثته خلفهم ، وكان ذلك في يوم جمعة في شهر رمضان عام 289 هـ ، على حد رواية ابن جرير الطبري .

وقد جاء في " الكامل في التاريخ " أن هذا الحادث أثار استهجان الشعب ، فشجبوا فعلة القاضي ، وهجوه ، وفيما قالوا في ذلك :

قُـلْ لِقاضِـي المَدِيْنَـةِ المَنْصُـوْر ... بمَ أحْلَلْتَ أخْذَ رَأسَ الأمِيْـــر

عِنْدَ إعْطائِهِ المَوَاثِيْق وَالعَهْد ... وَعَهْدُ الإيْمَان فِي مَنْشُـوْر

أيْـنَ إيْـمَـانـكَ الـتِي شَـهِدَ اللهُ ... عَلَى أنَّـهَا يَـمِـيْـن فُـجُـوْر

إن كَـفَـيكَ لَا تـفـارق كَـفـيـه ... إلَى أن تَـرَى عَلِيْل السَّرِيْر

يَـا قَلِيْل الـحَيْاء يَا أكْذَب الأمَّة ... يَـا شَـاهِـداً شَـهَـادَة زُوْر

لَيْسَ هَذَا فِعْلُ القُضَاة وَلَا يُحْسِن ... أمْـثَـالَـهُ ولَاة الـجُـسُـوْر

إن أمر ركبت فِي الجمعة الزَّهْرَ ... اء مِنْـه فِي خَيْر هَذِي الشُّهُوْر

قدْ مَضَى من قتلت فِي رَمَضَان ... صَائِمَاً بَعْد سَجْدَةِ التَّعْفِيْر

***

obeikandl.com

أبو شامة

ويبدو أن ذلك الحادث كان خطيراً ومؤثراً ، فكان من آثاره أن تشجع القرامطة – بعد أن رأوا تأجج الصراع على النفوذ – فتحركوا بمناطق الشام والبصرة وحول بغداد ، بقيادة " زكرويه " ، وابنيه يحيى والحسين . وقد ذكر السيوطي أن نفوذ يحيى بن زكرويه عظم في الشام حتى لقب بالشيخ ، واستطاع سحق الجيوش التي كانت توجه للقضاء على حركته . فلما قُتل يحيى عام 290 هـ حل محله في زعامة القرامطة أخوه الحسين بن زكرويه ، وكانت له شامة ، ادعى أنها آيته ، ولقب بأبي شامة . وانضم إليه ابن عمه عيسى بن مهرويه ، ولقب نفسه بالمدثر ، وادعى أنه هو المعني في سورة المدثر . حسب رواية ابن الأثير . وعن أبي شامة أيضاً يقول السيوطي : " ... وظهر على الشام وعاث وأفسد وتسمى بأمير المؤمنين ودُعيَ له على المنابر ... " .

وكانت نهاية أبي الشامة ، كما صورها ابن الأثير بقوله :

" ... أُدخل صاحب الشامة الرَّقة ظاهراً للناس على فالج ، وهو الجمل ذو السنامين ، بين يديه المدثر والمطوق ، وسار المكتفي إلى بغداذ ومعه صاحب الشامة وأصحابه ، وخلف العساكر مع محمد بن سليمان ، وأُدخل القرمطي بغداذ على فيل ، وأصحابه على الجمل ، ثم أمر المكتفي بحبسهم إلى أن يقدم محمد بن سليمان ، فقدم بغداذ ، وقد استقصى في طلب القرامطة . فظفر بجماعة من أعيانهم ورءوسهم ، فأمر المكتفي بقطع أيديهم وأرجلهم ، وضرب أعناقهم بعد ذلك ، وأُخرجوا من الحبس ، وفُعل بهم ذلك، وضُرب صاحب الشامة مائتي سوط ، وقُطعت يداه ، وكوى ، فغشي عليه ، وأخذوا خشباً وجعلوا فيه ناراً ، ووضعوه على خواصره ، فجعل يفتح عينه ويغمضها ، فلما خافوا موته ضربوا عنقه ، ورفعوا رأسه على خشبة ، فكبر الناس لذلك ، ونصب على الجسر " .

وفي سنة 292هـ دخلت الجيوش العباسية القطائع تحت قيادة محمد بن سليمان لينتهي الأمر باستعادة الخلافة العباسية سيطرتها على مصر عام 292 هـ . واسقطت الدولة الطولونية التى استمر حكمها لمصر طيلة ثمانٍ وثلاثين سنة .

وفي نهاية عام 295 هـ. يتوفى المكتفى لتبدأ فترة تاريخية مليئة بالاضطرابات عامرة بالأحداث الغريبة .

***

obeikandl.com

هَذَا حَالُ الصّبْيَان وَسُفَهَاء الوُلَاة

المقتدر بالله

295 – 320 هـ

أثناء المرض الأخير للمكتفى ، الذي توفي على إثره شاء أهل الحل والعقد في الدولة العباسية اختيار خليفة جديد فتولى هذا الأمر الوزير " العباس بن الحسن " ، وكان أن دله البعض على " عبدالله بن المعتز " لما يتمتع به من كفاءة وخبرة ، فمال الوزير إلى هذا الرأى ، ولكنه لما يسأل " أبا الحسن بن الفرات " – أحد رؤساء الدواوين – عن رأيه ، فإذا بالأخير يفاجئه بترشيح صبى صغير يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً . وهو مايرويه ابن الأثير ، ثم يخبرنا بأنه لما يدهش الوزير لذلك الترشيح الغريب ويصيح في وجه ابن الفرات : " ويحك ! ... هو صبي ... " ، يرد ابن الفرات – الذي كان يعلم أنه يرشح صبياً – رداً منطقياً يتسق تماماً مع تسيير دفة أمور الدولة حينذاك ، فيقول للوزير العباس بن الحسن :

" ولِمَ تأتى برجلٍ كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج إلينا ؟ " .

وينتهي الأمر حقاً بتولية ابن الثالثة عشرة : أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، أخو الخليفة المتوفى . ويتلقب الخليفة – الصبي بلقب " المقتدر بالله " .

ويبدو أن الوزير العباس بن الحسن ظل على عدم اقتناعه بولاية المقتدر فشرع يعمل على استبداله بخليفةٍ آخر ، فاتجه إلى عبدالله بن المعتمد قاصداً مبايعته . لكن ابن المعتمد يموت بغتةً إثر مشادة وقعت بينه وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة ، فيختار الوزير رجلاً آخر للخلافة ، هو الحسين بن المتوكل ، الذي يموت هو أيضاً فجأةً .

وهكذا احتفظ المقتدر بالله بمنصب الخلافة رغم تدابير الوزير . ولكنه ما يكاد يهنأ بتمام البيعة له حتى يجتمع ولاة الأمر ومعهم الوزير على خلعه وتولية ابن المعتز مكانه . وبالفعل يبايع القوم ابن المعتز بالخلافة ، ويخلعون المقتدر وأثناء ذلك يتبدل موقف الوزير نفسه من النقيض إلى النقيض وهو ما يجمله ابن الأثير بقوله :

" ثم إن الوزير رأى أمره صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب " .

أما السيوطي فيبرر انقلاب الوزير فيقول :" فبلغ المقتدر ذلك فأصلح حال العباس ودفع إليه أموالاً أرضته فرجع عن ذلك " .

ولكن بقية المتآمرين لم يرتضوا ذلك ولم يرجعوا عنه فلاحقوا الوزير واغتالوه .

ثم توجهوا إلى المقتدر ليقتلوه . وكان الخليفة يلعب الكرة بالحلبة فبلغه مقتل الوزير فأسرع يختبئ بداره متحصناً داخلها . وجيء بابن المعتز وبويع بالخلافة .

وفجأةً تتبدل المواقف فإذا بزعيم المتمردين الحسين بن حمدان – قاتل الوزير- يلوذ بالفرار تاركاً ابن المعتز ليواجه مصيره المحتوم .

ويذكر ابن الأثير سبب هروب الحسين فجأةً فيقول : " فهرب من الليل ، وهذه مواطأة بينه وبين المقتدر وكان هذا سبب هروبه " .

ولم يكن أمام الخليفة الجديد سوى الهروب أيضاً ، ولكنه سرعان ما يقع في يد أحد قادة المقتدر و ... " ، وحُبس إلى الليل ، وعُصرت خصيتاه حتى مات ... " .

وهكذا دفع ابن المعتز حياته ثمناً ليومٍ واحدٍ فقط في كرسي الخلافة .

وكان ابن المعتز لما أيقن من هلاك نفسه قد أنشد الأبيات التالية :

يَا نَفْسُ صَبْرَاً لَعَلَّ الخَيْرَ عُقْبَاكِ ... خَانَتْكَ مِنْ بَعْدِ طُـــوْلِ الأمْنِ دُنْيَاك

مَـرَّتْ بـنَا سَحـرَاً طَيْرٌ فَقُلْت لَهَا ... طُـــوْبَاكِ يَـا لَيْتَنِيْ إيَّـــاكِ طُـوْبَـــاك

إنْ كَانَ قَصْدُكِ شَرْقَاً فَالسَّلَام عَلَى ... شَاطِئِ الصراة أبلغي إن كَانَ مســـرَاك

مِنْ مُوثِقٍ بالمَنَايَا لَا فِكَاكَ لَـــهُ ... يَبْكِي الـدِّمَـــاءَ عَلَى إلْفٍ لَهُ بَاكِـــي

فرُبَّ آمِنَـةٍ جَـــاءت مَنِيَّتُـهَا وَرُبَّ خصلى مِنْ بَيْـــن إشْـــــرَاكِ
أظُنّهُ آخِرَ الأيَّـــــام مِنْ عُمري وَأوشَـــك اليَوْم أنْ يَبْكِـــي لِي بَاكِـي

وهكذا أيضاً تحول الموقف لصالح المقتدر ورجحت كفته وانتصر على خصومه واسترد موقعه . ولكن كل ذلك لم يضع نهايةً لقلقلة الأوضاع في الدولة العباسية ، وإنما كان ذلك مجرد بداية فترة طويلة من اضطراب الأمور واشتعال جذوة الفتن والمؤامرات .

فقد أغرت حداثة سن الخليفة كل صاحب طموح أو نفوذ بالعبث بمقادير الدولة .

فصارت أم الخليفة " شغب " ، التي لقبت " بالسيدة " ، هي الآمرة الناهية في شئون الدولة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انحدر سلطان الدولة دركة من التدني ، جعلت خدم القصر ونساءه أصحاب نفوذ وسطوة ، فصاروا هم الذين يعينون الوزراء في مقابل رشوة تدفع لهم . حتى وصل عدد الوزراء المعزولين في عهد المقتدر إلى اثني عشر وزيراً . ومنهم من عين في هذا المنصب مرتين وثلاثاً .

وقد تجلى غلبة " السيدة – شغب " أم الخليفة المقتدر على أمور الدولة في تعيينها إحدى القهرمانات رئيسة لديوان المظالم .

أما الخليفة المقتدر فقد انشغل باللهو وتبذير الأموال .

ومما يروي ابن كثير عن بذخ الخليفة أنه " ... في يوم عرفة في أول ولايته فرق من الأغنام والأبقار ثلاثين ألف رأس ، ومن الإبل ألف بعير ... ". ويقول أيضاً :

" وكانت الجواهر الثمينة في الحواصل لدن بني أمية وأيام بني العباس ، قد تناهى جمعها ، فما زال يفرقها في حظاياه وأصحابه حتى أنفذها ، وهذا حال الصبيان وسفهاء الولاة " .

أما السيوطي فيقول : " وكان المقتدر جيد العقل ، صحيح الرأس ، لكنه كان مؤثراً للشهوات والشراب مبذراً ، وكان غلب عليه حب النساء ، فصرف عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها ، وأعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة ، ووزنها ثلاثة مثاقيل ،

وأعطى زيدان القهرمانة سبحة جواهر لم ير مثلها ، وأتلف أموالاً كثيرة ، وكان في داره عشرة آلآف غلام خصيان ، غير الصقالبة والروم والسود " .

ويروي السيوطي أيضاً : " ... ختن المقتدر خمسة من أولاده ، فغرم على ختانهم ستمائة ألف دينار ... " .

أما ابن الأثير فيقول عن تبذير الخليفة المقتدر بالله :

" وكان جملة ما أخرجه من الأموال ، تبذيراً وتضييعاً في غير وجه ، نيفاً وسبعين ألف ألف دينار ... " .

وفي عام 301 هـ. يتم اغتيال رجلين من أشهر رجال ذلك العهد ، أولهما هو : الأمير أحمد بن إسماعيل الساماني "صاحب خراسان وما وراء النهر " ، فقد تآمر عليه بعض غلمانه واغتالوه ، وكان من عادة الأمير أحمد الساماني إذا آوى إلى فراشه أوقف أسداً على الباب ليتولى حراسته . وفي هذه الليلة اتفق هؤلاء الغلمان على عدم إحضار الأسد إلى أميرهم ، مما سهل على المتآمرين عملية دخولهم على الأمير أحمد وذبحه وهو على فراشه .

وكان الخليفة العباسي المعتمد قد ولى نصر بن أحمد الساماني على إقليم ما وراء النهر عام 261 هـ ، وما يلبث أن ينشب صراع بين نصر هذا وبين أخيه اسماعيل والي بخارى الذي يحل محل نصر بعد وفاته سنة 279 ، وهو من يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة السامانية (266 - 389 هـ) التي استطاعت القضاء على الدولة الصفارية .

أما الرجل الثاني ، الذي اغُتيل أيضاً على يد خدمه في العام نفسه ، فكان زعيم القرامطة : أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي . فقد دخل أحد خدمه عليه وهو في الحمام فقتله ، ولم يكتف هذا الخادم بقتل زعيم القرامطة ، بل لقد خطط لتصفية أكبر عدد ممكن من رؤسائهم ، فبعد أن فرغ الخادم من قتل أبي سعيد الجنابي مضى إلى هؤلاء وصار يقول لكل واحدٍ منهم على حدة أن أبا سعيد بعثه في استدعائه ، فلما ينفرد الخادم

بالرجل يقتله ، وظل يفعل ذلك حتى قضى على أربعة من كبار القرامطة ، إلا إن خامسهم كشف أمره فقتلوه .

وللطبري رواية في هذه الحادثة يقول فيها : " وفي سنة إحدى وثلاثين ، كان مقتل أبي سعيد الجنابي القرمطي ، وكنا قد ذكرنا استيلاءه على هجر ومحاربته لجيش المعتضد بالله وكسره لهم ، فلما كانت هذه السنة قتله خادم له وهو بالحمام ، فولت القرامطة أمرهم إلى سعيد ولده ، فقرض لحم الخادم الذي قتل أباه بالمقاريض حتى مات " .

***

obeikandl.com

وكانت بداية ولاية المقتدر بالله قد شهدت مولد دولة قوية في المغرب .

فلم يكد المقتدر يرتقي عرش الخلافة حتى تم الإعلان عن قيام الخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا عام 296 هـ ، تلك الدولة الشيعية التي ساهمت – إلى أقصى حد – في إضعاف الخلافة العباسية السنية ، بل ومهدت للقضاء عليها .

فقد صارت الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية تسيطر على مصر والشام وشمال أفريقيا وصقلية والبحر الأحمر واليمن والبحرين والسند ، وكذلك أيضاً الحجاز حيث يوجد قدس أقداس المسلمين في مكة والمدينة . بل إن قوة الفاطميين بلغت حد أن أسقطت الخلافة العباسية بالفعل وصارت بغداد شيعية إسماعيلية لمدة عامٍ كامل .

ويعود نسب الخلفاء الفاطميين إلى أحد أبناء الإمام جعفر الصادق ، كما سبق ذكره ، ولكن الحقيقة أن هذا الانتساب يكتنفه الغموض الذي فرضته طبيعة الدعوة الإسماعيلية ، فقد تضاربت الأراء حول نسب هؤلاء الخلفاء والأئمة الإسماعيليين .

وقد أورد ابن الأثير قصةً طريفة ، وإن كانت تبدو أسطورية إلا إنها تدلل على غموض هذا النسب . يقول ابن الأثير : " لما توفى عبد الله بن ميمون القداح ادعى ولده أنهم من ولد عقيل بن أبي طالب . وكان ولده احمد هو المُشار إليه منهم فتوفي وخلّف ولده محمد وتوفي محمد وخلّف أحمد والحسين فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص (...) وكان الحسين يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر ، والدعاة باليمن يكاتبونه ويراسلونه واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد مات عنها زوجها وهي في غاية الحسن فتزوجها ولها ولد من الحداد (...) ، وأحب ولدها وأدبه وعلمه (...) ، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول : " إن الإمام الذي كان بسلمية وهو الحسين مات ولم يكن له ولد ، فعهد إلى ابن

اليهودي وهو عبيد الله وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعل ، وأين الدعاة ، وأعطاه الأموال والعلامات ، وتقدم إلى أصحابه بطاعته وخدمته ، وأنه الإمام والوصي ... " .

وإلى هذه الرواية يضيف ابن الأثير : " وبعض الناس يقولون ، وهم قليلٌ ، : " إن عبيد الله هذا من ولد القداح ... " .

وهناك روايةٌ أخرى تنفي انتساب الفاطميين إلى جعفر الصادق ، وتقول بأن ابن ميمون القداح لم يكن سوى راوية للإمام جعفر الصادق .

أما الدكتور أيمن فؤاد سيد في كتابه الدولة الفاطمية ، فيرجع التباس الأمر إلى مبدأ التقية الذي يؤمن به الشيعة ، فيقول : " بالرجوع إلى رسالة المهدي إلى اليمن يمكننا إيجاد إجابة مقبولة ، فتذكر الرسالة أن جعفر الصادق خلّف أربعة أولاد هم عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد ، صاحب الحق فيهم هو عبد الله ، ولما أراد أولاد جعفر " إحياء دعوة الحق " خافوا فتسموا بغير أسمائهم وأطلقوا على أنفسهم مبارك وميمون وسعيد للفأل الحسن في هذه الأسماء ، وهي إشارة واضحة إلى مبدأ التقية عند الشيعة . فلقب الميمون هو الذي قاد إلى هذا الخلط . وتشير الرسالة بوضوح إلى أن محمد بن إسماعيل الذي يعده الإسماعيليون الإمام السابع ليس سوى محمد بن عبد الله الذي تسمى إسماعيل " .

وعن غموض نسب الفاطميين يُروى أن المعز لدين الله عند دخوله مصر سأله أهلها عن نسبه ، فما كان منه إلا إن أشهر سيفه وقال : " هذا نسبي ! " ، ثم نثر عليهم ذهباً وقال : " وهذا حسبي !" .

ويمكننا اعتبار اليمن المركز الرئيس الذي رسخت فيه الدعوة الإسماعيلية ، كما كان الإسماعيليون أنفسهم يعتبرون اليمن أهم مناطق نفوذهم . وكان بعض دعاة الإسماعيلية قد بادروا بالذهاب إلى المغرب يبشرون هناك بالمذهب الإسماعيلي . وتبعهم إلى هناك رجل من أهل صنعاء عُرف باسم أبو عبد الله الشيعي . وكان أبو عبد الله الشيعي قد استغل موسم الحج ، وتقرب إلى حجاج من قبيلة كتامة المغربية

وحادثهم فأعجبوا به . ثم كان أن سأل أهل كتامة أبا عبد الله عن مقصده فأخبرهم أنه ذاهب إلى مصر . فلما وصلوا مصر تشبثوا ببقائه معهم والمضي معهم إلى المغرب . وهناك التف القوم حول أبي عبد الله الشيعى فعظم أمره ، فصار يبشر القوم هناك بظهور المهدي ويقول : " المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض ، فيا طوبى لمن هاجر إليَّ وأطاعني ! " .

ثم راسل أبو عبد الله " المهديَّ " ليخبره بأنه وطَّد له الأمر في المغرب ، فرحل المهدي أولاً إلى مصر ، ثم واصل طريقه حتى وصل إلى سجلماسة . وهناك انكشف أمره فحبسه صاحب سجلماسة . ولما دانت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في أفريقيا خرج جيش عظيم قاصداً سجلماسة : " فاهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناتة ، وزالت القبائل عن طريقه ، وجاءته رسلهم ودخلوا في طاعته " .

وكان أن فر صاحب سجلماسة من وجه أبي عبد الله الشيعي الذي أطلق سراح المهدي وأخذ يشير إليه وهو يقول للناس : " هذا مولاكم ... " ، وهو يبكي من شدة الفرح ، وهكذا دان للمهدي الفاطمي حكم البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين .

***

الذَّيْ أَمَرْتَنَا بِطَاعَتِهِ ... أَمَرَنَا بِقَتْلِكَ

الخليفة الشيعي يغتال مؤسس الدولة أبا عبد الله الشيعي

ما كادت الأمور تدين للمهدي الفاطمي ، حتى صار يجمع أزمة الأمور في يده وينفرد بالسلطان وينحي أبا عبد الله الشيعي جانباً . وعلى الجانب الآخر صار أبو العباس – أخو أبي عبد الله الشيعي – يوغر صدر أبي عبد الله على الخليفة ، ويقول له كما يروي السيوطي :

" ملكت أمراً ، فجئت بمَن أزالك عنه ، وكان الواجب عليه ألا يسقط حقك " .

وصار أبو العباس يؤلب الناس ضد الخليفة حتى أنه شكك في كونه المهدي نفسه :

" إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه ... " .

وكان أن تطور الأمر إلى مؤامرة لقتل الخليفة المهدي ، فاجتمع أبو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس وآخرون بدار رجلٍ يُدعى أبو الزاكي لينسجوا خيوط المؤامرة ، إلا إن أحد المتآمرين وشى بهم لدى المهدي .

وذات يومٍ دخل أبو عبد الله على المهدي الذي بادره بالسؤال :

" أين كنتَ البارحة والليالي التي قبلها ؟ ... أليس بتَّ في دار الزاكى ؟ " .

فرد أبو عبد الله : " بلى ! " .

فقال المهدي : " وما الذي أخرجك من دارك ؟ " .

قال : " خفت " .

فقال المهدي : " وهل يخاف الإنسان إلا من عدوه ! " .

هكذا انكشف أمر عبد الله الشيعي ومن معه . وما كان من المهدي إلا أن يحتال على أبي الزاكي فمنحه ولاية طرابلس ، وفي الوقت نفسه كاتب عامله على طرابلس بأن يقتل أبا الزاكي لدى وصوله . فقتله وأرسل رأسه إلى المهدي .

كما أمر المهدي رجاله باقتفاء أثر أبي عبد الله الشيعي وأخيه وقتلهما . فكان أن أحاط رجال المهدي بأبي عبد الله الذي أدرك ما سوف يقدم عليه هؤلاء ، فصاح بهم :

" لا تفعل يا بني ! " .

فرد أحدهم : " الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك " .

وهكذا تخلص المهدي من رءوس المؤامرة الثلاثة أبا عبد الله وأخيه وأبي الزاكي في يوم واحد من عام 298 هـ .

وفي عام 301 أيضاً يرسل المهدي الفاطمي جيشاً إلى مصر بقيادة ابنه أبي القاسم ، فاحتل الإسكندرية والفيوم وغيرهما ، فأرسل الخليفة المقتدر جيشاً بقيادة مؤنس الخادم الذي استطاع هزيمة الفاطميين وردهم إلى المغرب .

وفي العام التالى يعاود الفاطميون الكرّة ، لكن مؤنس الخادم يهزمهم ثانيةً .

وهكذا يتضح إصرار الخلافة الفاطمية (الشيعية) منذ نشاتها على احتلال مصر تحديداً .

ففي عام 306 هـ : يرسل الخليفة المهدي الفاطمي – للمرة الثالثة – جنوده لاحتلال البلاد المصرية ، إلا إن محاولته هذه المرة أيضاً باءت بالفشل .

***

أما في بغداد وفي عام 309 هـ فقد قُتل الحسين بن منصور ، المعروف بالحلاج ، بتهمة الخروج على الدين والكفر ، في حين أن البعض كان يعده من الصوفيين .

وعن اختلاف الرأي في أمر الحلاج يذكر ابن كثير قولاً للخطيب البغدادي في ذلك فيقول : " والصوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم ، وأبى أن يعده فيهم ، وقبله من متقدميهم أبو العباسي بن عطاء البغدادي ، ومحمد بن خفيق الشيرازي ، وإبراهيم بن محمد النصر أباذي النيسابوري ، وصححوا له حاله ودونوا كلامه ، حتى قال ابن خفيف :

" الحسين بن منصور عالم رباني . وقال أبو عبد الرحمن السلمي – واسمه : محمد بن الحسين – سمعت إبراهيم بن محمد النصر أباذي وعوتب في شيء حُكى عن الحلاج في الروح ، فقال للذي عاتبه : إن كان بعد النبيين والصديقين موحدٌ فهو الحلاج " .

وعن اختلاف الناس في الحلاج يروي أيضاً ابن الأثير :

" ... فمن قائل إنه حل فيه جزء إلهي ، ويدعي فيه الربوبية ، ومن قائل أنه ولي الله تعالى ، وإن الذي يظهر منه من جملة كرامات الصالحين ... " .

ويورد الرواة أشعاراً للحلاج في الحلول منها :

جُبِلَتْ رُوْحُكَ فِي رُوْحِي كَمَا ... يجبلُ العَنْبَرُ بالمِسْكِ الفتق

فَإِذَا مَسكَ شَيْءٌ مَسنِي ... وَإِذَا أَنْتَ أَنَا لَا نَفْتَرق

وقوله أيضاً :

مُزِجَتْ رُوْحك فِيْ رُوْحِي كَمَا ... تمزجُ الخَمْرَةُ بالمَاءِ الزّلال

فَإِذَا مَسكَ شَيْءٌ مَسنِي ... فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلّ حَال

وكان أن ألقى حامد بن العباسي – وزير المقتدر بالله – القبض على الحلاج وشاء قتله ، فأنكر الحلاج ما يقال عنه وقال :

" أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة ، وإنما أنا رجل أعبد الله عز وجل " .

فلما استفتى الوزير القضاة والفقهاء في قتل الحلاج ، رفضوا إباحة قتله حتى يقوم على ذلك بينة .

وبعد حين أتى الوزير بكتاب للحلاج فيه كلام له بالترخيص في مكان طاهر داخل البيت ، لمن لا يستطيع الحج .

فاستدعى الوزير القاضي ، الذي سأل الحلاج عن ذلك ، فقال الحلاج بأنه قد أتى به من كتاب للحسن البصري ، فقال القاضي : " كذبتَ يا حلال الدم " .

ويبدو أن الوزير كان ينتظر هذه الكلمة ، فألزم القاضي بكتابة ذلك . ويبدو أن القاضي قد أراد التراجع عما قاله ، إلا إن الوزير ألح عليه ، فكتب القاضي ما أراد الوزير في ورقة ، فأرسل الوزير بتلك الورقة إلى الخليفة المقتدر ، فأذن له الخليفة بقتل الحلاج .

وقد رُويَ عن إبراهيم بن فاتك أنه قال : " لما أُتيَ بالحسين بن المنصور ليُصلب رأى الخشبة والمسامير فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه . ثم التفت إلى القوم فرأى الشبلي فيما بينهم فقال له : يا أبا بكر هل معك سجادتك ؟ فقال : بلى يا شيخ . قال : افرشها لي . ففرشها فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين وكنت قريباً منه . فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ [البقرة : 155] ، وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : 185] ، فلما سلم عنها ذكر أشياء لم أحفظها ، وكان مما حفظته : " اللهم إنك المتجلي عن كل جهة ، المتخلي من كل جهة . بحق قيامك بحقي ، وبحق قيامي بحقك . وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي . فإن قيامي بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقي لاهوتية . وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماسة لها . وبحق قِدمك على حدثي ، وحق حدثي تحت ملابس قدمك ، أن ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليَّ حيث غيّبت أغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك وحرّمت على غيرى ما أبحت لي من التظر في مكنونات سرك ، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك . فأغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لَمَا فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم لَمَا ابتُليت بما ابتُليت . فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد . ثم سكت وناجى سراً . فتقدم أبو الحارث السياف فلكمه لطمةً هشم أنفه وسال الدم على شيبه . فصاح الشبلي ومزق ثوبه وغشي على أبي الحسين الواسطي وعلى جماعة من من الفقراء المشهورين . وكادت الفتنة تهيج ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا " .

أما ما فعله الحراس ، فكان أن أمسكوا بالحلاج وقيدوه وضربوه ألف سوط ، ثم قطعوا يديه ورجليه ، ثم اجتزوا رأسه ، ونصبوها على جسر ببغداد ، أما جثته فأحرقوها وذروا رمادها في نهر دجلة .

***

وفي عام 311 هـ : يتحرك القرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان – الذي تولى زعامة القرامطة بعد اغتيال أبيه أبي سعيد الجنابي – فهاجموا البصرة وأعملوا القتل في أهلها ، وحملوا ما قدروا على حمله من " المال والأمتعة والنساء والصبيان " ، ثم عادوا من حيث أتوا .

وقد عاود القرامطة هجومهم مرة أخرى في عام 315 هـ ، فهاجموا الكوفة ومناطق أخرى ، وألحقوا الهزائم بالجيوش العباسية .

وفي عام 317 هـ : يهاجم أبو طاهر مكة ، ويقوم هو ومَن معه من القرامطة بقتل الحجيج ثم يلقون بجثثهم في بئر زمزم .

ولم يكتفِ أبو طاهر بذلك ، فقام بخلع الحجر الأسود من مكانه واستولى عليه وأخذه معه .

***

فَذَبَحَهُمَا كَمَا يُذْبَحُ الغَنَمُ

وإذا رجعنا إلى بلاط الخليفة مرة أخرى وجدنا الفساد قد نخر في أركانه ، والمؤامرات قائمة على قدمٍ وساق . ففي عام 311 هـ يعزل الخليفة المقتدر وزيره حامد بن العباسي ، ويخرج وزيره السابق أبي الحسن بن الفرات من السجن ؛ ليوليه الوزارة للمرة الثالثة . ويلقي القبض على الوزير المخلوع حامد بن العباسي ، ويستجوبه ابن الفرات عما " وصل إليه من المال " فيقر حامد بمبلغ قدره مليون دينار تقريباً . ثم يتقدم ابن الوزير الجديد ، وكان يُدعى " المحسن " ، إلى الخليفة الجديد المقتدر بضمان قدره 500 ألف دينار مقابل تسليمه الوزير المخلوع حامد بن العباسي . وبالفعل يتسلم المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الوزير السابق ، فيعذبه ثم يدس عليه من يغتاله بالسم .

وإن كانت هذه هي نهاية الوزير السابق ، فإن نهاية الوزير اللاحق " ابن الفرات " لم تكن بأفضل منها ، فقد قتل هو وابنه أيضاً في العام التالي مباشرةً ، أي عام 312 هـ .

أما الوزير ابن الفرات فكان اللغط قد كثر حوله ، حتى إنه اتُّهِم بالتواطؤ مع القرامطة .

وأما ابنه المحسن فكان فساده قد استشرى ، وبلغ به حد أنه قتل جماعة من الناس كان قد استولى على أموالهم .

ثم كان أن قرر المقتدر اعتقال الوزير وابنه . فتم اعتقال الوزير ، أما ابنه المحسن فقد استطاع الفرار ولجأ إلى حماته التي كانت تلبسه ملابس النساء وتخفيه نهاراً بالمقابر ، فإذا جنى الليل مضت به – وهو في هيئة امرأة – إلى من تثق بهم ليقضي الليل هناك . إلا إنه ما لبث أن اكتشفت إحدى النساء أمره ، فأبلغت عنه الخليفة ، وكان المحسن قد اختبأ بدار هذه المرأة ، فعرفته ، فهي التي كانت قد رأته يوم أن داهم منزلها وأخذ يعذب أهلها – بحثاً عن مال يستولي عليه – فمات زوجها أثناء ذلك .

وهكذا وقع المحسن – ابن الوزير السابق – في أيدي رجال المقتدر ، فأخذوا يسومونه العذاب حتى يقر بالأموال التي استولى عليها ، ولكنه أصر على عدم الإقرار بذلك ، وقال لهم : " لا أجمع لكم بين نفسي ومالي " .

فلما علم الخليفة بذلك أمر باستدعاء المحسن وأبيه الوزير ابن الفرات إلى قصره . وهنا قرر رجال البلاط وأصحاب النفوذ منع لقاء الوزير السابق بالخليفة ، فقد خشوا أن يبذل ابن الفرات الأموال هناك ، ثم يوغر صدر الخليفة عليهم ويطمعه في أموالهم فتنقلب الأوضاع عليهم ، فقرروا الخلاص من الوزير السابق وابنه ، فأوعزوا للخليفة بقتلهما . فأمر " نازوك " – صاحب الشرطة – بقتلهما ، فذبحهما كما يُذبح الغنم .

وكان مقتل المحسن قبل قتل أبيه ابن الفرات . فلما قُتل المحسن أُخذت رأسه وأدخلت على أبيه ، فلما رأى الرجل رأس ابنه جزع جزعاً شديداً .

وأُخذت رأس الوزير أيضاً ، وحمل الرأسان إلى الخليفة المقتدر ، فأمر بتغريقهما .

وفي عام 317 هـ : تنشب ثورة ضد الخليفة المقتدر ، فيتآمر عليه " مؤنس المظفر " ، قائد الجيش ، و " نازوك " وآخرون ، ويخلعونه ويولون مكانه أخاه القاهر بالله . ولكن الفوضى تعم البلاد ، وينقلب الحال مرة أخرى لصالح المقتدر ، الذي يعود مرة أخرى إلى عرشه بتدبيرٍ من مؤنس المظفر نفسه .

ولكن ما يكاد أن تمر سنواتٌ قلائل حتى ينقلب مؤنس مرة أخرى على الخليفة ، ويتمرد عليه ، فتنشب حربٌ بين الخليفة ومؤنس في عام 320 هـ .

ويقوم الخليفة إلى مكانٍ مرتفع ليحث رجاله على الإجهاز على أتباع مؤنس ، ويغريهم قائلاً : " مَن جاء برأسٍ فله خمسة دنانير ، ومن جاء بأسيرٍ فله عشرة دنانير " .

ولكن ما يكاد أن ينشب القتال حتى يفر أنصار الخليفة ويتركونه ليقع أسيراً في يد أحد قواد مؤنس ، الذي يسلمه لبعض رجاله من البربر . فالتفت هؤلاء إلى الخليفة ، ثم تقدموا نحوه شاهرين سيوفهم ، فقال لهم المقتدر : " ويلكم ، أنا الخليفة " .

فقالوا : " قد عرفناك يا سفلة ، إنما أنت خليفة إبليس ، تنادي في جيشك مَن جاء برأس فله خمسة دنانير " .

ثم هجموا على الخليفة المقتدر بالله وذبحوه ، وأخذوا رأسه " وسلبوه كل شيء عليه حتى سراويله ، وبقي مكشوف العورة مجندلاً على الأرض " .

***

القاهر بالله

320 –322 هـ

بعد قتل المقتدر جيء بأخيه : أبو منصور محمد ومعه محمد بن المكتفي ، فلما سُئل محمد ابن المكتفي في أمر ولايته للخلافة رفض وأشار إلى أبي منصور محمد ، وقال :
" عمي هذا أحق ... " .

وبالفعل تذهب البيعة بالخلافة إلى أبي منصور الذي تلقب بالقاهر بالله ، وكان ذلك في عام 320هـ . وما أن تولى القاهر حتى بادر بمصادرة أموال أخيه الخليفة السابق وآله ، وعلى حد قول السيوطي : " فأول ما فعل أن صادر آل المقتدر ، وعذبهم ، وضرب أم المقتدر حتى ماتت من العذاب " .

وقد ورد ذكر تلك السيدة عظيمة الشأن سابقاً في أيام الخليفة السابق المقتدر .

أما الخليفة القاهر بالله فكان ابن زوجها المعتضد من زوجة أخرى له تُدعى " فتنة " .

ويروي ابن كثير ما فعل القاهر بزوجة أبيه وأم أخيه السيدة شغب فيقول :

" وشغب أم أمير المؤمنين المقتدر بالله ، الملقبة بالسيدة ، كان دخلها من أملاكها كل سنة ألف ألف دينار (...) وكانت في غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة أيام ولدها . فلما قُتل كانت مريضة فزادها قتله مرضاً إلى مرضها . ولما استقر أمر القاهر في الخلافة وهو ابن زوجها المعتضد وأخو ابنها المقتدر ، وقد كانت حضنته حين توفيت أمه وخلصته من ابنها لما أخذت له البيعة بالخلافة له ، ثم رجع ابنها إلى الخلافة فشفعت في القاهر وأخذته إلى عندها فكانت تكرمه وتشتري له الجواهر . فلما قُتل ابنها وتولى مكانه طلبها وهي مريضة فعاقبها عقوبة عظيمة ، حتى كان يعلقها برجليها ورأسها منكوس ، فربما بالت سال البول على وجهها " .

ربما توضح هذه القصة بعض خصال القاهر وأفعاله ، وبالإضافة إلى ما في هذه القصة من دلالة يضيف شيوخ المؤرخين صفاتٍ عديدة أنكروها على الخليفة القاهر ، وهي

التي أدت في النهاية إلى الانقلاب عليه والإطاحة به . فكان من أول أعمال القاهر ، بعد توليه ، كما يذكر ابن كثير أنه أمر : " بإبطال الخمر والمغاني والقيان ، وأمر ببيع الجواري المغنيات بسوق النخس ، على أنهن سواذج " .

وقال ابن الأثير : و "إنما فعل ذلك لأنه كان محباً للغناء ، فأراد أن يشتريهن برخص الأثمان . نعوذ بالله من هذه الأخلاق " .

وفي كتابه " تاريخ الخلفاء " يورد الإمام جلال الدين السيوطي الرواية نفسها السابقة ثم يضيف : " وكان مع ذلك لا يصحو من السكر ولا يفتر عن سماع الغناء " .

ولكن سرعان ما اجتمع الوزير ابن مقلة وعلي بن بليق ومؤنس الخادم أمير الأمراء والملقب بالأمير المظفر – لما أبداه من جهد وشجاعة في قتال الفاطميين وردهم عن مصر – مع آخرين ، واتفقوا على خلع القاهر وتولية أبي أحمد المكتفي مكانه فوشى بهم رجل يدعى طريف اليشكري ، وبينما استطاع ابن مقلة النجاة ولاذ بالفرار ، يقبض الخليفة على مؤنس الخادم وعلي بن بليق . فأمر بذبح علي بن بليق :

" فذبح بين يديه كما تذبح الشاة ، فأخذ رأسه في طست ودخل به القاهر على أبيه بليق بنفسه ، فوضع رأس ابنه بين يديه ، فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويترشفه ، فأمر بذبحه أيضاً ، فذُبح ، ثم أخذ الرأسين في طستين فدخل بهما على مؤنس الخادم ، فلما رآهما تشهد ولعن قاتلهما ، فقال القاهر : جروا برجل الكلب ، فأُخذ فذُبح أيضاً ، وأُخذ رأسه فوضع في طست وطيف بالرءوس في بغداد " .

أما أبو أحمد المكتفي ، مرشح الخلافة ، فقد أخذه القاهر ووضعه بين حائطين ، "وطين" عليه حسب تعبير السيوطي .

أما ابن كثير فيورد الرواية نفسها هكذا : " وأمر القاهر بأن يجعل أبو أحمد المكتفي بين حائطين ويسد عليه بالآجر والكلس ، وهو حي ، فمات " .

وما أن فرغ القاهر من قتل خصومه حتى استحال إلى أعوانه ، فحبس طريف اليشكري الذي كان قد أسند إليه منصب أمير الأمراء ، وسجن كذلك وزيره أبا جعفر محمد بن القاسم .

وكان هذا ما أستغله ابن مقلة – الوزير الهارب – فأخذ يؤلب الجند على القاهر ويوعز إليهم بالخروج عليه وخلعه ، ويستثير خوفهم منه مستشهداً بما بدا من أفعال القاهر وانقلابه على أعوانه . وقد نجح أبو علي بن مقلة في مسعاه ، فانقلب القوم على الخليفة ، وعزموا على خلعه ، ثم تجمعوا وساروا إليه :

" وهاجموا الدار من سائر الأبواب ، فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخموراً ، وطلب باباً يهرب منه ، فقيل له إن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال ، فهرب إلى سطح حمامٍ ، فلما دخل القوم لم يجدوه ، فأخذوا الخدم وسألوهم عنه ، فدلهم عليه خادمٌ صغير ، فقصدوه ، فرأوه وبيده السيف ، فاجتهدوا به فلم ينزل لهم ، فألانوا له القول ، وقالوا : نحن عبيدك ، وإنما نريد أن نأخذ عليك العهود . فلم يقبل منهم ، وقال : مَن صعد إليَّ قتلته ! فأخذ بعضهم سهماً ، وقال : إن نزلت ، وإلا وضعته في نحرك فنزل إليهم حينئذٍ ..." .

وهكذا استسلم الخليفة للمتمردين :

" فقبضوا عليه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه " .

***

الراضي بالله

322 – 329 هـ

لما تخلص المتمردون من الخليفة القاهر ، وانتهوا من أمره ، صاروا يبحثون عن آل المقتدر حتى وجدوهم وأخرجوهم من سجنهم ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن المقتدر بالله بالخلافة ، وتلقب بالراضي بالله .

وقد ساد عهد الراضي الفساد وضربت الفوضى أركان سلطان دولة الراضى حد أن حاصر الجنود دار الخلافة ، و ... " قبض الغلمان على الوزير علي بن مقلة ... "

ولم يعد أمام الخليفة سوى الرضوخ لطلب المتمردين ، فعزل وزيره ابن مقلة الذي كان استوزره مقابل 500 ألف دينار – على حد قول ابن كثير – وولَّى آخر لم يبقَ في منصبه سوى خمسين يوماً ، وتبعه بثالث ليقال هذا أيضاً بعد ثلاثة شهور ونصف ويليه رابع ويعزل لتصل الوزارة في النهاية إلى خامس وزير في عام واحد فقط .

ويعلق ابن كثير على اضطراب أمر الخلافة فيقول : " وهذا كله من تخبيط الترك والغلمان " .

وفي كتابه " البداية والنهاية " يروي ابن كثير عن ابن مقلة الوزير : " محمد بن علي ابن الحسن ، أبو علي المعروف بابن مقلة الوزير ، وقد كان أول عمره ضعيف الحال ، قليل المال ، ثم آل به الحال إلى أن وُلِيَ الوزارة لثلاثة خلفاء : المقتدر والقاهر والراضي . وعُزل ثلاث مرات ، وقُطعت يده ولسانه فكان يستقي الماء بيده اليسرى وأسنانه . وكان مع ذلك يكتب بيده اليمنى مع قطعها . وكان يبكي على يده كثيراً ويقول : " كتبت بها القرآن مرتين وخدمت بها ثلاثة من الخلفاء ، تُقطع كما تُقطع أيدي اللصوص" .

وفي سنة 324 هـ يستدعي الخليفة الراضي " ابنَ رائق " ويسلمه مقاليد الأمور ، مانحاً إياه لقب أمير الأمراء ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر .

ويُعتبر ابن رائق هو أول من تولَّى هذا المنصب الخطير ، أي إمارة الأمراء .

وعن النفوذ العظيم لابن رائق ومنصبه الخطير المستحدث يروي السيوطي :

" وفي سنة 324 تغلب محمد بن رائق أمير واسط ونواحيها ، وحكم على البلاد وبطل أمر الوزارة والدواوين وتولى هو الجميع وكتابه وصارت الأموال تُحمل إليه وبطلت بيوت المال وبقي الراضي معه صورةً وليس له من الخلافة إلا الاسم " ، على حد تعبير السيوطي .

وهكذا دخلت الدولة العباسية في عهد الراضي بالله مرحلة جديدة ، أطلق عليها عصر إمرة الأمراء ، فصار بيد صاحب هذا المنصب أمور الدولة وأموالها ، وكان هو من يخصص نفقات الخليفة ، وهكذا تم إلغاء دور بيوت المال ، كما شق الولاة عصا الطاعة على الخليفة .

وتشهد سنة 325 اختلال أوضاع البلاد التي وصفها السيوطي بأنها صارت :

" ... بين خارجي قد تغلب عليها أو عامل لا يحمل مالاً وصاروا مثل ملوك الطـوائف ، ولم يبقَ بيد الخليفة الراضي غير بغداد والسواد (...) ، ووهنت أركان الدولة العباسية ، وتغلبت القرامطية والمبتدعة على الأقاليم ... " .

و كان نتيجة هذا أن طمع الأمراء فنازعوا ابن رائق السلطة حتى انتهى الأمر بزوال نفوذ ابن رائق سنة 326 هـ ، بعدما حاربه أبو عبد الله البريدي – صاحب الأهواز – كما خرج عليه أحد قواده واسمه بجكم ، ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بغداد سنة 327 هـ ، وآلت إليه إمرة الأمراء زهاء عامين .

وتتفاقم الفوضى ليعم الفساد بغداد ، فكثرت السرقات وتبع حالة الفوضى والذعر الذي أصاب الناس من شر اللصوص أن اشتدت المنازعات الدينية ببغداد ، إذ قويت شوكة الحنابلة ، وصاروا يهاجمون الدور ، فإن عثروا بها على نبيذ أراقوه وتتبعوا المغنيات بالضرب محطمين آلات الموسيقى ، وتجاوز الحنابلة ذلك فصاروا يحرضون العميان على أصحاب المذهب الشافعي ، فيضربونهم بالعصي .

وهكذا يبلغ سوء الحال حد أن الراضي عجز عن دفع أرزاق الجند . واستمرت هذه الحالة إلى أن توفي سنة 329 هـ .

ومن طرائف أحداث عصر الخليفة الراضي قصة رواها المسعودي في "مروج الذهب" فقال :

" أخذ القاهر (الخليفة السابق) من مؤنس وأصحابه مالاً عظيماً ، فلما خُلع وسُمل طولب بها فأنكر ، فعُذب بأنواع العذاب ، فلم يقر بشيء ، فأخذه الراضي فقربه وأدناه وقال له : " قد ترى مطالبة الجند بالمال ، وليس عندي شيء ، والذي عندك فليس بنافع لك ، فاعترف به " ، فقال : " أما إذا فعلت هذا فالمال مدفونٌ بالبستان " ، وكان قد أنشأ بستاناً فيه أصناف الشجر ، حُملت إليه من البلاد ، وزخرفه ، وعمل فيه قصراً ، وكان الراضي مغرماً بالبستان والقصر . فقال : " وفي مكانٍ المال منه ؟ " .

فقال : " أنا مكفوف ، لا أهتدي إلى مكان فأحفر البستان تجده " ، فحفر الراضي البستان وأساسات القصر ، وقلع الشجر ، فلم يجد شيئاً ، فقال له : " أين المال ؟ " .

فقال : " وهل عندي مال ؟ وإنما كان حسرتي في جلوسك في البستان وتنعمك ، فأردت أن أفجعك فيه ... " .

وفي عام 329 هـ يصاب الراضي بالله بمرضٍ يموت على إثره ، ولم يكن قد أتم بعد الثانية والثلاثين من عمره ويسوق الطبري سبب مرض الراضي فيقول :

" وكان أقوى سبب علته كثرة النكاح ... " .

***

الدولـة الإخـشيديـة

ظلت مصر ثلاثين عامًا تعاني من الاضطراب والفوضى والفتن الداخلية بعد سقوط الدولة الطولونية ، وذلك بسبب ضعف النفوذ الخلافة العباسية وعدم قدرتها في السيطرة على شئون البلاد وإدارتها رغم عودتها إلى نفوذ الخلافة العباسية .

ولما كانت تجربة الاستقلال بمصر مازالت ماثلة في الأذهان ، فقد تطلع أحد القادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر إلى الانفراد بالسلطة وحده دون القادة المتنازعين ، والولاة العباسيين . ولم يكن هذا القائد سوى " محمد بن طُغج الإخشيد " ، الذي ولاه الخليفة العباسي الراضي بالله مصر سنة 322 هـ بعد تصديه للحملة الفاطمية سنة 321 هـ ، ومنحه لقب الإخشيد وهو لقب إيراني .

وكان جد محمد الإخشيد قد دخل في خدمة الخليفة العباسي المعتصم ، ثم ابنه الواثق ، فأخيه المتوكل بسامراء . ولم يلبث الإخشيد أن أعلن استقلاله بمصر عن حكم الخليفة العباسي عام 323 هـ . وكانت العلاقة على ما يرام بين محمد بن طغج الإخشيد والخلافة العباسية حتى جاء اليوم الذي أرسل فيه الخليفة الراضي جيشاً بقيادة " محمد ابن رائق" إلى الشام لانتزاع مصر من الإخشيد ، وعندئذ ألغى الإخشيد اسم الخليفة العباسي من الخطبة ، واستطاع هزيمة القائد ابن رائق ، وتفرغ الإخشيد بعد هزيمة قائد الخليفة لإدارة الشئون الداخلية ، فنجح في القضاء على الفتن والقلاقل وكان أن ضم الشام إلى حكمه ، ولم يكتفِ بذلك ففرض نفوذه على الحجاز .

وبعد وفاة الإخشيد عام 334 هـ تولى الوصاية على الحكم الوزير الشهير أبو المسك كافور ، وأبو المسك كافور هذا هو مَن قال فيه أبو الطيب المتنبي قصيدته الشهيرة : "عِيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيْدُ " .

وبدأها بالأبيات التالية:

عِيْدٌ بأيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيْدُ بمَا مَضَى أمْ بأمْرٍ فِيْكَ تَجْدِيْـدُ

أمَّا الأحِبَّةُ فَالبَيْدَاءُ دُوْنَهُـمُ فَلَيْتَ دُوْنَكَ بـيْـدَاً دُوْنَهَـا بـيْـدُ

ثم عرَّج على كافور ليوجه له هجاءً شديداً قال فيه :

obeikandl.com

أكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوْءِ سَيِّدَهُ ... أوْ خَانَهُ فُلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيْدُ

صَارَ الخَصِيُّ إمَامَ الآبِقِيْنَ بِهَا ... فَالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُوْدُ

نَامَتْ نَوَاطِيْرُ مِصْرَ عَنْ ثَعَالِبِهَا ... فَقَد بشِمن وَمَا تَغْنَى العَنَاقِيْدُ

العَبْدُ لَيْسَ لِحرِ صَالِحٍ بِأخٍ ... لَوْ أنَّه فِي ثِيَابِ الحُرّ مَوْلُوْدُ

لَا تَشْتَرِ العَبْدَ إلَّا وَالعَصَا مَعَهُ ... إن العَبِيْد لأنجَاس مَنَاكِيْدُ

مَا كُنْت أحْسَبنِي أحْيَا إلَى زَمَن ... يُسِيْء بي فِيْه عَبدٌ وَهُو مَحْمُوْدُ

وَلَا تَوهَمت أنَّ النَّاسَ قَدْ فُقِدُوا ... وَأن مِثْلَ أبي البَيْضَاء مَوْجُوْدُ

وَأن ذَا الأسود المَثْقُوْبُ مشفَره ... طيعه ذِى العَضَارِيْط الرَّعَادِيْدُ

وخلال ثلاثة وعشرين عاماً – وعلى النقيض من رأي المتنبي – كان كافور حاكماً قوياً أحسن إدارة شئون البلاد والدفاع عن مصالحها ووحدتها ، ولكن ما أن تُـوفّي عام 358 هـ ، حتى سقطت مصر في أيدي الفاطميين .

وكان دعاة الشيعة قد نجحوا في بث دعوتهم في أنحاء البلاد المصرية ، حتى كثر أتباعهم فيها ، ولم تنقطع محاولات الفاطميين في المغرب الهجوم عليها من قبل ، حتى إذا تُوفي كافور سنة 358 هـ أرسل المعز قائده جوهر فاستولى على مصر سنة 358 هـ وسقطت الدولة الإخشيدية لتحل الدولة الفاطمية محلَّها في حكم مصر والشام .

***

المتَّقي للـــه

329 –333 هـ

وهو ابن الخليفة المقتدر بالله ، بويع له بعد وفاة أخيه الخليفة الراضي بالله .

وهنا يتجلى مدى النفوذ الذي بلغه متولى منصب أمير الأمراء ، الذي صارت له الكلمة في تعيين الخليفة ، فعندما مات الخليفة السابق الراضي بالله ، انتظر وجهاء القوم من وزراء وأمراء وقضاة وغيرهم توجيه أمير الأمراء بجكم الذي كان خارج بغداد في ذاك الوقت . ولم يحضر بجكم بل أرسل كاتبه ليجمع كل هؤلاء ويشاورهم فيمن يصلح لمنصب الخلافة .

وفي هذا يقول ابن الأثير:

" لما مات الراضي بالله بقي الأمر في الخلافة موقوفاً انتظاراً لقدوم أبي عبد الله الكوفي ، كاتب بجكم من واسط ، وكان بجكم بها . واحتيط على دار الخلافة ، فورد كتاب بجكم مع الكوفي يأمر بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضي ، كلٌّ منهم تقلد الوزارة ، وأصحاب الدواوين ، والعلويون ، والقضاة ، والعباسيون ، ووجوه البلد ، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقته ، فجمعهم الكوفي ... " .

ويصور السيوطي الحال الذي آل إليه نفوذ الخليفة فيقول : " ... ولم يكن له سوى الاسم والتدبير لابن عبد الله أحمد بن علي الكوفي ، كاتب بجكم " .

وكان بجكم قد تولى إمارة الأمراء أثناء خلافة الراضي عام 325 هـ . وتوفي عام 329 هـ . وقد قتل بجكم على يد جماعة من الأكراد في بداية عهد الخليفة المتقي ، وكانت حرب قد اشتعلت بين البريديين والأتراك ، وكان بجكم قد أرسل جيشه بقيادة " توزون " لقتال أبي عبد الله البريدي . وعندما أراد بجكم اللحاق بتوزون إذا برسالة تصله من توزون تبشره بانتصاره على البريديين ، فعاد بجكم أدراجه ، إلا إنه –

في طريق عودته – هاجم بعض الأكراد طمعاً في أموالهم : " فهرب الأكراد من بين يديه ، ورمى هو أحدهم فلم يصبه ، فرمى آخر فأخطأه أيضاً ، وكان لا يخيب سهمه ، فأتاه غلام من الأكراد من خلفه وطعنه في خاصرته ، وهو لا يعرفه ، فقتله " ، كما جاء برواية ابن الأثير .

وما أن علم الخليفة بموت بجكم ، حتى قام بالاستيلاء دار بجكم وأمواله التي كان دفنها هناك ، واستولى المتقي على أموال أخرى لبجكم كان دفنها في الصحراء ... " ... وكان مبلغ ما أخذ من ماله ودفائنه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ... " .

وما أن يتولى كورتكين الديلمي مكان بجكم في إمرة الأمراء حتى تنشب ثورة في البلاد ليقوم الخليفة باستدعاء ابن رائق ، الذي دخل بغداد واستطاع الانتصار على كورتيكن ليتم حبسه في السجن ، ويؤول أمر بغداد إلى ابن رائق . ولكن سرعان ما ينقلب حال الخليفة وأمير الأمراء رأساً على عقب ، وفي هذا يقول ابن الأثير : " إن محمداً بن رائق وقع بينه وبين البريدي وحشة لأجل أن البريدي منع خراج واسط (...) فبعث أخاه أبا الحسين في جيش إلى بغداد ، فتحصن ابن رائق مع الخليفة بدار الخلافة ... " .

ويكمل ابن كثير هذه الرواية ، فيقول : " ثم إن الخليفة وابن رائق انهزما (...) فقصدوا نحو الموصل ، واستحوذ أبو الحسين على دار الخلافة وقتل مَن وجد فيها من الحاشية (...) ، وأخرجوا كورتكين من الحبس . وكان مع أبي الحسين طائفة كبيرة من القرامطة فأفسدوا في البلاد فساداً عظيماً ، ووقع بينهم وبين الأتراك حروب طويلة شديدة ، فغلبهم الترك وأخرجوهم من بغداد . وقد كان الخليفة أرسل وهو في بغداد إلى ناصر الدولة بن حمدان نائب الموصل يستمده ويستحثه على البريدي . فأرسل ناصر الدولة أخاه سيف الدولة في جيش كثيف ، فلما كان بتكريت إذا بالخليفة وابن رائق قد هربا فرجع معهما سيف الدولة إلى أخيه (...) ، فأرسل الخليفة ولده أبا منصور ومعه ابن رائق للسلام على ناصر الدولة ... " .

ويكمل ابن الأثير الفصل التالي من لقاء ابن رائق وابن حمدان ، فيقول : " فلما أرادوا الانصراف من عنده ركب ابن المتقي ، وأراد ابن رائق الركوب ، فقال له ناصر الدولة : تقيم اليوم عندي لنتحدث فيما نفعله . فاعتذر ابن رائق بابن المتقي ، فألح عليه ابن حمدان ، فاستراب به ، وجذب كمه من يده فقطعه ، وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط ، فصاح ابن حمدان بأصحابه : اقتلوه ! فقتلوه ، وألقوه في دجلة . وأرسل ابن حمدان إلى المتقي يقول : إنه علم أن ابن رائق أراد أن يغتاله ، ففعل به ما فعل ، فرد عليه المتقي رداً جميلاً ، وأمره بالمسير إليه ، فسار ابن حمدان إلى المتقي لله ، فخلع عليه ، ولقبه ناصر الدولة ، وجعله أمير الأمراء ... " ، على حد رواية ابن الأثير .

وهكذا لمع نجم بني حمدان بعدما خلع الخليفة على الحسن بن عبد الله بن حمدان ، ولقبه ناصر الدولة ، كما خلع على أخيه أبي الحسن الحمداني أيضاً ولقبه سيف الدولة .

وكان أن عين الخليفة أبا إسحاق الفزاري وزيراً ، وجعل توزون التركي على شرطة بغداد ، وما لبث توزون أن صار في عام 331 هـ أميراً للأمراء ، وعندما يزوج توزون ابنته لأبي عبد الله البريدي يخشى الخليفة تآمر الصهرين عليه ، فيغادر بغداد لاجئاً إلى سيف الدولة بن حمدان بالموصل . وتنشب حرب بين توزون وسيف الدولة وأخيه فيهزمهما توزون الذي يسترضي الخليفة ، فيعود إلى بغداد عام 333 هـ ، لكن توزون يقبض على الخليفة ويضعه بالسجن ويسمل عينيه ، و يقيم عبد الله بن المكتفي مكانه .

يقول السيوطي :

" وخرج المتقي من الرقة إلى بغداد سنة 333 هـ ، وخرج للقائه توزون ، فالتقيا بين الأنبار وهيت ، فترجل توزون وقبل الأرض ، فأمره المتقي بالركوب ، فلم يفعل ، ومشى بين يديه إلى المخيم الذي ضرب ، وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب ، وأحضر توزون عبد الله بن المكتفي ثم بايعه المقتفي المسمول .

ولما بلغ القاهر أنه سمل قال : صرنا اثنين نحتاج إلى ثالث . فكان ذلك ، فقد سمل المستكفي ، وصاروا ثلاثة خلفاء عمي " .

الدولة البويهية

يرجع أصل البويهيين إلى رجل فارسي يُدعى بويه من إقليم الديلم في جنوب غرب بحر قزوين . وقد قامت هذه الدولة على أكتاف أولاد بويه الثلاثة : علي (عماد الدولة) ، و الحسن (ركن الدولة) ، و أحمد (معز الدولة) . وقد كان بنو بويه شيعة على المذهب الزيدي ، وهو أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة ، وهو ما كان له الأثر بالتالي في إظهارهم الولاء للخلافة العباسية .

وكان أن سيطر (علي بن بويه) عماد الدولة على مدينة شيراز سنة 324 هـ ، وجعلها مقراً لحكمه . كما استولى أخوه الحسن (ركن الدولة) بلاد الجبال ، أما أحمد (معز الدولة) فقد احتل بلاد كرمان والأهواز – خوارستان – فأشرف بذلك على العراق . وقد عمل جميعهم في خدمة القائد مرادويج بن زياد الديلمي ، الذي استقل بطبرستان والديلم .

وكان أحمد بن بويه قد استغل فرصة تدهور الأحوال في العراق بسبب تنافس الأمراء الأتراك على السلطة ، واحتل بغداد سنة 334 هـ ، فاستقبله المستكفي بالله سنة 333 هـ . وحل البويهيون الفرس محل الأتراك في حكم فارس والعراق .

***

المستكفي بالله

333 -334 هـ

وهو أبو القاسم عبد الله ، ابن الخليفة الأسبق المكتفي بالله .

وفي تولية أبي القاسم (المستكفي بالله) قصة طريفة رواها أبو العباس الرازي ، أحد أعوان توزون التركي أمير الأمراء .

إذا التقى أبو العباس هذا صديقاً له أخبره بأن له قريبة نصحته بتولية المستكفي ، فقالت له : " إن المتقي هذا قد عاداكم وعاديتموه ، وكاشفكم ، ولا يصفو قلبه لكم ، وها هنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفي (...) تنصبونه خليفة ، فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره ... " .

والتقى أبو العباس المرأة واتفقا على لقاء أبي القاسم (المستكفي) : " فقالت : تعود غداً إلى ها هنا حتى أجمع بينكما ، فعدت إليها من الغد ، فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر في زي امرأة ، فعرَّفني نفسه وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار منها ألف لتوزون ... " .

وأخبر أبو العباس توزون فوافقه ، وهكذا تمت البيعة للمستكفي بالله في نفس يوم خلع المكتفي وسمل عينيه . أما تلك المرأة فصارت قهرمانة للخليفة ، وأطلقت على نفسها اسم " علم " .

وفي سنة 334 يتوفى توزون التركي ببغداد ، فصار كاتبه ابن شيرزاد أمير الأمراء من بعده .

وما أن سمع الخليفة بأن أحمد بن بويه قد عقد النية على السير إلى بغداد حتى اختفى ومعه أمير الأمراء .

ويروي السيوطي : " ... ثم دخل أحمد بن بويه بغداد ، فاختفى ابن شيرزاد ودخل ابن بويه دار الخلافة ، فوقف بين يدي الخليفة ، فخلع عليه ولقّبه " معز الدولة " ولقّب أخاه علياً " عماد الدولة " ، وأخاهما الحسن " ركن الدولة ... " .

ورغم ذلك لم يلبث أن ينقلب معز الدولة الشيعي على المستكفي السني ويحجر عليه ، ثم يقبض معز الدولة بن بويه على الخليفة ويخلعه . ويبدو أن السبب وراء ذلك أن "علم" قهرمانة المستكفي بالله – التي كانت تدبر كل أموره – قد دعت البعض إلى وليمة ، فظن معز الدولة أن المرأة القوية تتآمر عليه ، فدبر معز الدولة أمر عزل الخليفة فمضى إليه وجلس معه :

" ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان ، فتناولا يد المستكفي بالله ، فظن أنهما يريدان تقبيلها ، فمدها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته في حلقه ، ونهض معز الدولة واضطرب الناس ، ونهبت الأموال ، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبقَ بها شيء " .

وكان أن سُملت عينا المستكفي أما قهرمانة " علم " ، فقد قطع لسانها .

***

المطيع لله

334 – 363 هـ

جاء البويهيون الشيعة بالخليفة العباسي المطيع لله الذي ظل مستضعفاً معهم بلا سلطان أو نفوذ ، فكانت كل الأمور بيد معز الدولة ومن بعد ابنه عز الدولة . وبينما كان معز الدولة – حين دخوله بغداد – قد خصص للخليفة السابق المستكفي خمسة آلاف درهم كل يوم (تاريخ الخلفاء) نجده يخصص لنفقات الخليفة المطيع 100 دينار في اليوم .

وكان بنو بويه (الشيعة) يؤمنون بأن العباسيين قد اغتصبوا حكم الأمة الأسلامية من العلويين ، فشاء معز الدولة عزل العباسيين وتولية العلويين ، ولكن أحد رجاله حذره من ذلك ، وفي ذلك قصة لها دلالة عميقة يرويها ابن كثير : " عزم معز الدولة على تحويل الخلافة إلى العلويين واستشار أصحابه ، فكلهم أشار عليه بذلك ، إلا رجلاً واحداً من أصحابه ، كان سديد الرأي فيهم ، فقال : لا أرى لك ذلك ، قال : ولم ذاك ؟ قال : لأن هذا الخليفة ... ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الإمارة حتى لو أمرت بقتله قتله أصحابك ، ولو وليت رجلاً من العلويين اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة ، فلو أمرت بقتله لم تطع بذلك ، ولو أمر بقتلك لقتلك أصحابك ... " .

وهكذا بقي السلطان في بيت العباس . ولكن الخليفة المطيع كان مع بني بويه كالأسير على حد تعبير جلال الدين السيوطي .

وفي عدة سنوات قليلة يتسع ملك بني بويه ، ويمتد نفوذهم إلى أعمال الري والجبل وأصبهان وفارس والأهواز والعراق والبصرة والموصل ، ناهيك عن بغداد العاصمة نفسها .

وفي سنة 339 يعيد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة بعد اثنين وعشرين عاماً .

وتشهد السنوات التالية ازدياد نفوذ الشيعة في أرجاء العالم الإسلامي من مصر إلى الشام والعراق ومن خراسان إلى الحجاز والمغرب .

أما بغداد نفسها فتشهد العديد من الفتن بين الشيعة والسنة .

ومن مظاهر غلبة نفوذ السلطان ابن بويه الشيعي على الخليفة السني أنه كتب على أبواب الجوامع : " لعنة معاوية ولعنة من غصب فاطمة حقها من فدك ، ومَن منع الحسن أن يدفن مع جده ، ولعنة من نفى أبا ذر " ، وكان ذلك في سنة 351 هجرية .

وفي السنة التالية يأمر معز الدولة ابن بويه بإغلاق الأسواق وإقامة الاحتفال بيوم عاشوراء . أو كما يروي ابن كثير :

" في عاشر المحرم من هذه السنة أمر معز الدولة ابن بويه ، قبحه الله ، أن تغلق الأسواق وأن يلبس النساء المسوح من الشعر ، وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولم يمكن أهل السنة منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم وكون السلطان معهم " .

وفي سنة 350 هجرية يموت معز الدولة ابن بويه ويقوم بالأمر من بعده ابنه عز الدولة بختيار .

وفي سنة 363 أصيب الخليفة بمرض ، فخلع وتم تولية ابنه بعده .

وعن ضعف أمر الخلافة العباسية وسقوط هيبتها أمام سلطان معز الدولة ابن بويه يقول ابن الأثير : " ... وازداد أمر الخلافة إدباراً ، ولم يبقَ لهم من الأمر شيء البتة ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشيء ، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث أن الخليفة لم يبقَ له وزير ، إنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد ... " .

***

الطائع لله

363-381 هـ

بعد خلع المطيع تمت البيعة لابنه أبي بكر عبد الكريم وقد قام على أمر إتمام البيعة سبكتكين ، الحاجب التركي ، وكان مولى المعز وحاجبه ، فكان أن كافئه الطائع بالإمارة ، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد قرابة شهرين ، أما الثروة التي خلفها "الحاجب" التركي سبكتكين ، فقد أوردها ابن كثير في كتابه " البداية والنهاية " :" وقد ترك من الأموال شيئاً كثيراً جداً ، من ذلك ألف ألف دينار ، وعشرة آلاف درهم وصندوقان من الجواهر وخمسة عشر صندوقاً من البللور ، وخمسة وأربعين من آنية الذهب ، ومائة وثلاثون كوكباً من ذهب ، منها خمسون وزن كل واحد ألف دينار ، وستمائة مركب من فضة وأربعة آلاف ثوب من ديباج ، وعشرة آلاف ديبقي وعتابي ، وثلثمائة عدل معكومة من الفرش ، وثلاثة الآف فرس وألف جمل وثلثمائة غلام ، وأربعون خادماً ، وذلك غير ما أودع عند أبي البزار ، وكان صديقه " .

وقد شهدت فترة خلافة الطائع تبوء خمسة من بني بويه لكرسي السلطنة ، وتوالوا على الإمساك بمقاليد الحكم وهم : عز الدولة ، وعضد الدولة ، وصمصام الدولة ، وشرف الدولة ، وبهاء الدولة .

وكانت منافسة قد اشتدت بين عز الدولة وبين سبكتكين (قبل وفاته) الذي دعا الأتراك لتدعيمه ، فلما استنجد عز الدولة بابن عمه عضد الدولة هُرع عضد الدولة إلى بغداد عام 364 ، فلما رأى عاصمة الخلافة أعجبته ؛ فقرر بسط نفوذه عليها ، وفي سبيل ذلك قاتل ابن عمه عز الدولة وأسره ، ثم قتله فيما بعد (سنة 367هـ) .

وأثناء إحدى المعارك بين عز الدولة وعضد الدولة أسر عضد الدولة غلاماً لعز الدولة وفي هذا يروي السيوطي : " وفيها (أي سنة365 هـ) كانت وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة ، وأسر فيها غلام تركي لعز الدولة فجن عليه ، واشتد حزنه ، وامتنع

من الأكل ، وأخذ في البكاء ، واحتجب عن الناس وحرم على نفسه الجلوس في الدست ، وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرد الغلام إليه ، ويتذلل ، فصار ضحكة بين الناس ، وعوتب فما ارعوى لذلك ، وبذل في فداء الغلام جاريتين عوديتين ، كان قد بذل له في الواحدة مائة ألف دينار ، وقال للرسول : إن توقف عليك في رده فزد ما رأيت ، ولا تفكر ، فقد رضيت أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض " .

ويورد ابن كثير الرواية نفسها ، ولكنه يختمها بقول عز الدولة :

" ذهاب هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي ، بل وأرض العراق كلها "

وما أن تم انتصار عضد الدولة حتى : " ... خلع الطائع على عضد الدولة خلع السلطنة ، وتوجه بتاج مجوهر ، وطوقه ، وسوره ، وقلده سيفاً ، وعقد له لوائين بيده : أحدهما مفضض على رسم الأمراء ، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره قبله ، وكتب له عهداً ، وقرئ بحضرته ، ولم يبقَ أحد إلا تعجب ... " ، على حد تعبير السيوطي : " لم يبقَ أحد إلا تعجب "، مما فعل الخليفة مع السلطان .

فماذا فعل السلطان مع الخليفة ؟ هذا ما يرويه السيوطي أيضاً :

" وجلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة (...) وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وسأل أن تكون حجاباً للطائع حتى لا يقع عليه عين أحد من الجند قبله ، ودخل الأتراك والديلم ، (...) ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة وقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زيد القائد لذلك ، وقال لعضد الدولة : ما هذا أيها الملك؟ أهذا هو الله ؟ فالتفت إليه وقال : هذا خليفة الله في الأرض . ثم استمر يمشي ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم ، وقال : استدنه ، فصعد عضد الدولة ، فقبَّل الأرض مرتين ، وقال له : ادْنُ إليَّ ، فدنا ، وقبل رجله ، وثنى الطائع يمينه عليه وأمره ، فجلس على الكرسي بعد أن كرر عليه : اجلس ، وهو يستعفي ، فقال : أقسمت عليك لتجلسن ، فقبل الكرسي وجلس ، فقال له الطائع :

قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إليَّ من أمور الرعية في شرق الأرض ولربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي فتولّى ذلك ..." .

هكذا إذن يضع الخليفة التاج على رأس الملك فيقبل هذا الأرض .

ويشير عضد الدولة إلى الطائع لله بأنه خليفة الله في الأرض فيفوضه هذا فيما وكَّله الله إليه من أمور الرعية في جميع أنحاء الأرض .

أما التعليق عن العلاقة بين الاثنين ، فنقرأه في كتاب تاريخ الخلفاء كالتالي :

" انظر إلى هذا الأمر ، وهو الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ما ضعفت في زمنه ، ولا قوي أمر سلطان ما قوي أمر عضد الدولة " .

وفي سنة 372هـ يتوفى عضد الدولة ليحتل ابنه صمصام الدولة مكانه ويلقبه الخليفة بشمس الملة ، ولم تمضِ سوى سنوات قلائل حتى يقتتل الأخوان صمصام الدولة ، وشرف الدولة الذي يقهر أخاه ويسمل عينيه ، فيتوجه إليه الطائع مباركاً ويخلع عليه السلطنة .

ولما يموت شرف الدولة عام 379 ويحل محله أخوه أبو نصر ، يمضى أيضاً إليه الطائع ليعزيه وينحه لقب " بهاء الدولة ، وضياء الملة " .

وفي سنة 381 كانت نهاية خلافة الطائع لله . وكان سبب ذلك أن الخليفة أقدم على حبس أحد رجال بهاء الدولة (ابن بويه) ، فكان جزاؤه الخلع من الخلافة ، وهو مشهد يصوره السيوطي على النحو التالي :

" فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متلقداً سيفه ، فلما قرب بهاء الدولة قبل الآرض وجلس على كرسي ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره ، وتكاثر الديلم فلفوه في كساء وأصْعِدَ إلى دار السلطنة ... " .

***

القادر بالله

381 – 422 هـ

بعد خلع الطائع لله سأل السلطان بهاء الدولة (البويهي) عمن يصلح من بني العباس لتبوء منصب الخلافة ، فدله القوم على " أبي العباس أحمد بن إسحاق " وهو ابن الخليفة المقتدر . وكان أبو العباس مقيماً حينذاك خارج بغداد ، فأرسل بهاء الدولة من أحضره لتولي الخلافة ، ولقب بالقادر بالله .

ثم كان أن تعاهد السلطان والخليفة على التزام كل منهما تجاه الآخر بالإخلاص والوفاء . و تأكيداً لهذا الاتفاق يتزوج الخليفة من ابنة بهاء الدولة في سنة 383 .

وكان أبو الحسن بن المعلم – وزير السلطان بهاء الدولة – قد فسد حاله فاقترف من الأمور ما جعل الناس يتمنون الخلاص منه ، كما انقلب عليه الجند : " فشغب الجند في هذا الوقت ، وشكوا منه ، وطلبوا منه تسليمه إليهم ، فراجعهم بهاء الدولة ، ووعدهم كف يده عنهم ، فلم يقبلوا منه ، فقبض عليه وعلى جميع أصحابه ، فظن أن الجند يرجعون ، فلم يرجعوا ، فسلمه إليهم ، فسقوه السم مرتين ، فلم يعمل فيه شيئاً فخنقوه ودفنوه " .

وفي عهد القادر بالله تولى السلطنة بالعراق 4 سلاطين من آل بويه هم : بهاء الدولة بن عضد الدولة ، سلطان الدولة بن بهاء الدولة ، شرف الدولة بن بهاء الدولة ، جلال الدولة بن بهاء الدولة .

وفي 386 هـ نرى كيف تتغلب المصالح السياسية بوضوحٍ تام على المذاهب الدينية ، وقد تجلى هذا عندما أقام قرواش بن المقلد – أمير بني عقيل وصاحب السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة – الخطبة للخليفة الفاطمي (الشيعي) الحاكم بأمر الله ، مما مثل تهديداً خطيراً لكيان الدولة العباسية (السنية) ، فأرسل بهاء الدولة (السلطان الشيعي) جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسي . وبالرغم

من أن المعز كان شيعياً ، إلا إنه رأى عدم نقل الخلافة إلى العلويين ، وفضل بقاءها في البيت العباسي الضعيف ، وهذا أيضاً مما يفسر بقاء الخلافة العباسية هذا الأمد مع ضعف خلفائها وهوانهم على الناس .

ويعطينا ابن الأثير صورة عن شكل الحكم في أيام البويهيين ، فيقول :

" ... وازداد أمر الخلافة إدباراً ، ولم يبقَ لهم من الأمر شيء البتة ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشيء ، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث إن الخليفة لم يبقَ له وزير ، إنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . (...) من ذلك ما نذكره : " ... أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي ، أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه ، فإنه قال : ليس هذا برأي ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم لقتلوه ، مستحلين دمه ، ومتى أجلستَ بعضَ العلويين خليفةً ، كان معك مَن يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ... " .

وفي سنة 387 يتوفى السلطان فخر الدولة ، فيحل ابنه رستم محله في السلطنة بالري وأعمالها ، وهو ابن أربع سنين ، فمنحه القادر لقب (مجد الدولة) .

ثم كان أن قام الشيعة سنة 398 هـ في بغداد بمظاهرة مسلحة طالبوا فيها بإقامة الدعوة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله ، وصاروا ينادونه في الشوارع يا حاكم يا منصور . فاضطر القادر إلى محاربتهم وهزيمتهم . وتكرر هذا الأمر مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل ، الذي تمرد على القادر سنة 401 هـ ، ونشر الدعوة الفاطمية في الموصل والمدائن والأنبار والكوفة ، ودعا للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله على منابر تلك البلاد . فوجه إليه الخليفة جيشاً قضى على حركته . ولما أدرك الخليفة أن الدولة الفاطمية وراء تلك الحركات ، لجأ إلى سلاح التشهير بسمعة الفاطميين والطعن في نسبهم .

***

أما في القاهرة ، عاصمة دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، وفي سنة 386 يتوفى الخليفة الفاطمي العزيز الذي امتدت فترة خلافته حوالي 21 عاماً ، بعد أن ضم إلى نفوذه : حمص وحماة وحلب ، وخطب له بالموصل واليمن . فخلفه ابنه أبو علي المنصور وتلقب بـالحاكم بأمر الله :

والحاكم هو أبو علي المنصور ، ابن الخليفة الفاطمي العزيز بالله (نزار بن المعز لدين الله) ، والحاكم هو سادس الخلفاء الفاطميين .

وقد وُلد الحاكم عام 375 هـ بمدينة القاهرة ، وكان ما زال صبياً في الحادية عشرة من عمره لما تولَّى الحكم في شهر رمضان من عام 386 هـ . وتنفيذاً لوصية أبيه قام على وصايته الوزير أبو الفتوح برجوان الذي كان خادماً لأبيه . فلما تولَّى برجوان شئون الدولة حرص على دعم نفوذه فكوَّن لنفسه طائفة خاصة من الجند والمماليك .

وعلى جانب آخر انتهز " المغاربة " حداثة سن الخليفة الجديد ، فحاولوا الوصول إلى مناصب النفوذ في الدولة ، فتقدم قائد الجيش وهو أحد سادة قبيلة كتامة يُدعى أبا محمد بن عمار ليفرض سطوته على الحاكم – الصبي ، الذي يذعن له ويمنحه لقب أمين الدولة ، لينشب صراعٌ بينه وبين برجوان في السيطرة على أمور الدولة ، وكذلك أمر الخليفة الصبي . ولكن برجوان يحتال ويستعيد نفوذه فيختفي ابن عمار .

لكن سرعان ما أسكرت نشوة السلطة رأس برجوان بعد انفراده بالنفوذ ، إذ ما لبث أن استبد برجوان الخادم بالأمر بعد أن عقد صلحاً مع خصومه السابقين ، فاستطاع استمالة المغاربة الذين كانوا يُعتبرون عماد قوة الدولة الفاطمية ، بعدما أعاد الاعتبار لزعيمهم ابن عمار . وبعد أن تمكن له الأمر أصبح برجوان الخادم السابق يستخفّ بالخليفة ويسيء معاملته ، كما أنه استغل منصبه في تكوين ثروة ضخمة له حتى بلغت ثروته أكثر من مائتي مليون دينار وخمسين أردباً من الدراهم والفضة واثني عشر

صندوقاً من الجواهر بالإضافة إلى الممتلكات العينية ، هذا بالإضافة إلى انشغاله باللهو والملذات ، مما أدى إلى انصرافه عن شئون الدولة ، وبلغ الغرور ببرجوان حد أنه كان يسخر من الحاكم بأمر الله ، فيدعوه بـ " الوزغة " أي السحلية ، وهو ما لم ينسه الخليفة ، فما أن شب عن الطوق حتى رد لبرجوان الصاع صاعين ، فأرسل إليه يقول : " الوزغة الصغيرة قد صار تنيناً عظيماً ، وهو يدعوك " ، فلما جاءه احتز رأسه ، وكان ذلك سنة 390هـ ، وهكذا تخلص الحاكم من وصيه برجوان الذي قام على تربيته .

وبعد التخلص من برجوان تمكن الحاكم من استرداد سلطانه ، والتخلص من كل المنافسين ، وكان عمره حينها قد تجاوز الـخمس عشرة سنة ، وقد بلغت سعادة أخته ست الملك بهذا الأمر حد أن أهدته (... ثلاثين فرساً مرصعة بالذهب والبللور وعشرين بغلة وخمسين خادماً ومائة تخت ثياب ، وتاجاً مرصعاً وأدوات ثمينة وتحفة فنية عبارة عن بستان من فضة مليء بالأشجار ...) ، ورغم ذلك أظهر الحاكم ميلاً للزهد والتقشف ، كما بادر في بداية حكمه بإلغاء عادة قومه وأهل مذهبه بلعن الصحابة ، ولكن ما إن مرت شهور قليلة حتى بدأت تظهر صفات الحاكم التي اشتهر بها ، فقد ذكر المقريزي عن أحداث 391 هـ :

" أمر الناس بالوقيد ، فتزايدوا بالشوارع والأزقة ، وزينت الأسواق بأنواع الزينة ، وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل ، وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشارب والغناء واللهو ، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج في الليل ، وتزايد الزحام في الشوارع والطرقات ، وتجاهروا بكثير من المسكرات ، فلما خرج الناس عن الحد أمر الحاكم ألا تخرج امرأة من العشاء ، فإن ظهرت نكل بها ، ومنع الناس من الجلوس في الحوانيت " .

ثم تشهد السنوات التالية انقلاب الحاكم على الجميع ، فأعمل القتل في أهل السنة وأهل الذمة ، وقد يكون هذا هو ما دفع السيوطي أن يقول عنه : " وكان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً كثير التلون في أقواله وأفعاله " .

وفي أحداث سنة 395 هـ يذكر المقريزي أيضاً أن الحاكم أصدر أمراً يلزم : " النصارى بأن تعمل في أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعاً ، وزنته خمسة أرطال بالمصري ، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي الخشب في زنة الصلبان أيضاً ، وأن يلبسوا العمائم السود ، ولا يكتروا من مسلم بهيمة ، وأن يدخلوا الحمام بالصلبان ، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمر بهدم الكنيسة المعروفة بالقيامة " .

***

وقد اختلف المؤرخون فيما آلت إليه نهاية الحاكم ، كما اختلفت المصادر في تفاصيل مقتله ، ويأتي في مقدمة أسباب اغتيال الحاكم ما أقدم عليه الحاكم بتغيير واحد من أهم مبادئ عقائد المذهب الإسماعيلي ، وهو نقله ولاية العهد إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ، بينما يؤمن الإسماعيليون بانتقال الإمامة من الأب للابن الذي يتصل نسبه بعلي بن أبي طالب مخالفاً كل مَن سبقوه من الخلفاء الفاطميين ، وأخذ له البيعة " ، وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه بجانب اسم الخليفة على العملة " .

لكن رواياتٍ كثيرة ترجح أن الحاكم كان ضحية مؤامرة دبرتها أخته ست الملك لسببين . أولهما : هو خوفها من زوال حكم آل بيتها بسبب ادعاء الحاكم الألوهية ، وفي ذلك يقول ابن الجوزي : " زاد ظلم الحاكم ، وعنَّ له أن يدعي الربوبية ، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون : يا واحد ، يا أحد ، يا محيي يا مميت " .

كما روى السيوطي أن " الحاكم أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره ، واحتراماً لاسمه ، فكان يُفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين ، وكان أهل مصر إذا قام خروا سجداً " .

أما السبب الثاني : لاغتيال الحاكم ، وهو الأشهر ، أن ست الملك خافت بطش الحاكم بها بعد طعنه إياها في شرفها ، حتى إنه قتل واحداً من أقرب خلصائه ، وهو القاضي مالك بن سعيد .

فكان أن عقدت ست الملك العزم على قتل أخيها الخليفة ، ووقع اختيارها على واحد من زعماء كتامة للقيام بهذه المهمة ، وهو الأمير سيف الدين حسين بن علي بن دواس ومضت إليه ، واتفقا على الخلاص من الخليفة مقابل توليه أمر دولة الخليفة الجديد . وجاءت نهاية الحاكم متسقة مع المسار الغريب لحياته .

وكان الحاكم قد اعتاد على الخروج ليلاً متنكراً إلى جبل المقطم ليخلو إلى نفسه ، فلما فعل ذلك ليلة الاثنين 27 شوال 411هـ ، يختفي للأبد ، ولم يُعثر له على أثر ، اللهم إلا عباءة بها دماء ، ولم يكن عمره حينذاك قد تجاوز السادسة والثلاثين . وحكم بعده ابنه علي الملقب بالظاهر .

***

الدروز

هي فرقة باطنية تنتمي مذهبياً إلى فرقة الإسماعيلية التي أخذت عنها معظم مبادئ عقيدتها ، وهي كغيرها من الفرق الباطنية تؤمن بسرية العقيدة والتقية والقول بالباطن . كما أنها تؤمن بسرية أفكارها ، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين ، فقد كان التستر والكتمان من أصول معتقداتهم .

وكان عام 408هـ قد شهد تحولاً خطيراً عندما قدم مصر داع اسمه محمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين الدرزي وإليه تنتسب فرقة الدرزية ، فدعا الرجل بألوهية الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله . ورغم أن تأسيس هذه العقيدة يرجع إلى نشتكين الذي رفضه الدروز فيما بعد لزندقته حسب وصفهم ، إلا أن المؤسس الحقيقي لهذه العقيدة هو : حمزة بن علي بن محمد الزوزني الذي تلقب بالهادي ، وكان عالماً من أعلام

الشريعة ، وهو الذي وضع كتب العقيدة ، ودعا إلى نفس دعوى الدرزي ، وبث دعاته في مصر والشام ، فلبى دعوته الكثيرون .

ويدور محور هذه العقيدة الدرزية حول شخص الخليفة الفاطمي : الملقب بالحاكم بأمر الله ، فالدروز يؤلهون الحاكم ، ويعتقدون أنه الصورة الناسوتية للإله ، ويعبدونه فلما مات قالوا بغيبته وبرجعته ، كما يعتقدون أن القيامة هي رجعة الحاكم .

والدروز يعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء ، وأنهم ذاتهم المسيح وتلامذته الأربعة متى ولوقا ويوحنا ومرقس . كما يؤمن الدروز أيضاً بوحدانية الله لذلك يسمون أنفسهم بأهل التوحيد ، ويؤمنون أن الأديان التوحيدية من مسيحية و يهودية وإسلام جميعها متشابهة ، وينزلون جميع طلاب الحقيقة منزلة الأنبياء ، كما يعتبرون المفكرين القدماء مثل فيثاغورس بمثابة الأنبياء .

كما يعتقدون ما يعتقده الفلاسفة من أن ربهم خلق العقل الكلي وبواسطته وُجدت النفس الكلية ، وعنها تفرعت المخلوقات ، وهي الفكرة الشائعة في المذهب الإسماعيلي .

كما يؤمن الدروز بتناسخ الأرواح أي بانتقال روح المتوفى إلى جسد مولود جديد ، فإذا كان الإنسان خيراً فيثاب بانتقال روحه إلى جسد سعيد ، وإن كان غير ذلك انتقلت روحه إلى جسد شقي ، وهذا أيضاً منافٍ لمبدأ الجنة والنار والثواب والعقاب الأخرويين ، وهو أصل من أصول الإيمان في الدين الاسلامي ، كما تأثروا بمبدأ الدهريين في الإيمان بالحياة الأبدية .

***

الدولة الغزنوية

كانت غزنة إحدى الولايات الخاضعة لحكم الدولة السامانية ، وقد تأسست هناك الدولة الغزنوية عام 351 هـ على يد واحد من ولاة الدولة السامانية ، وكان يدعى " سبكتكين " ، الذي ضم إلى حكمه ولاية خراسان وغيرها . ثم تولى من بعده ابنه إسماعيل فنازعه أخوه الأكبر محمود الملك ، ونجح في السيطرة على البلاد ليبدأ مجد الدولة الغزنوية التي اتسعت رقعتها على حساب الدولتين السامانية والبويهية وقد بلغت قوة محمود الغزنوي (388 هـ – 421 هـ) حد أن منحه الخليفة العباسي القادر بالله لقب " يمين الدولة وأمين الملة " ، وقد دخل محمود الغزنوي التاريخ من خلال فتوحاته المظفرة للهند التي أغار عليها سبع عشرة مرة انتصر فيها جميعاً . وقد اهتم محمود بالعلم والفنون حتى صارت غزنة كعبة للعلماء والفلاسفة والشعراء ، ومنهم الفارابي والبيروني والبيهقي والخوارزمي وبديع الزمان الزمان الهمذاني والفردوسي وغيرهم . إلا إن دولته تضعضعت بعد وفاته بسبب النزاع بين ولديه مسعود (421 – 432 هـ) ومودود (432 – 441 هـ) ، ثم آلت دولته إلى الزوال على يد الغوريين .

وفي سنة 422 يُتوفى الخليفة العباسي القادر بالله عن سبعٍ وثمانين سنة .

***

القائم بأمر الله

422 -467 هـ

في سنة 422 يتوفي القادر بالله عن سبعٍ وثمانين سنة ليتولى بعده ابنه القائم ، وقد اقترنت بداية ولايته ببدء أفول نجم البويهينٍ وانحسار نفوذهم .

ففي عام 423هـ يثور الجند على السلطان البويهي جلال الدولة ، حتى إنهم أخرجوه من بغداد ولم يستطع العودة إليها إلا بعد قرابة شهر ونصف .

وفي العام التالي ، أي 424هـ يثور الجند مرة أخري على السلطان البويهي ، وأخرجوه من داره ، ولكنهم في النهاية لم يجدوا بداً من إعادته بعد أن أقسم لهم " بإخلاص النية " .

وقد بلغت قوة هؤلاء واستهتارهم بالسلطان أنهم هاجموا الوزير نفسه : " وأخذوه وضربوه ، وأخرجوه من داره حافياً ، ومزقوا ثيابه ، وأخذوا عمامته وقطعوها ، وأخذوا خواتيمه من يده فدميت أصابعه ... " .

فلما استنجد " الوزير " بالسلطان إذا بجلال الدولة يقول له : " أنا ابن بهاء الدولة ، وقد فُعل بي أكثر من هذا " .

ولم يكن حال الخليفة القائم بأمر الله بأفضل من السلطان ، وعن هذا يقول ابن الأثير : " في هذه السنة (426هـ) انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد ... " .

ويستطرد ابن الأثير مظهراً هوان الخليفة والسلطان فيروي : " وعظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ، ولا مانع لهم لأن الجند يحمونهم والسلطان عاجز عن قهرهم " .

وبالرغم من ضعف جلال الدولة ، إلا إنه استطاع الحصول على لقب " ملك الملوك " وقد وافقه الخليفة على ذلك بعد أن أفتى بعض العلماء بجواز هذا الأمر .

ويشهد عام 431هـ أيضاً ثورةً جديدة للأتراك على جلال الدولة البويهي .

***

الدولة السلجوقية

ينتمي السلاجقة إلى قبائل تركية عُرفت بالغُز أو الأغواز ، وكانوا يسكنون تركستان بوسط آسيا ، ثم نزحوا إلى بلاد ما وراء النهر – نهر سيحون .

أما تسميتهم بالسلاجقة فترجع إلى سلجوق بن دُقاق – موحدهم وجامع شملهم – وكان قائداً لجيش ملك الترك . وقد انقلب سلجوق على مليكه ، ثم أعلن إسلامه على المذهب السني . وبعد وفاة سلجوق بن دقاق انتقل السلاجقة إلى نواحي بخارى وسمرقند .

وقد خلف سلجوق عدة أبناء كان أشهرهما : طغرلبك محمد وجغري بك داود .

وبعد سقوط الدولة السامانية أخذت جموع السلاجقة الأتراك تنتشر غرباً نحو خراسان بزعامة (طغرلبك) واستولوا على نيسابور (سنة 428 هـ) وألحقوا هزيمة كبرى بالسلطان مسعود الغزنوي ، ففرضوا نفوذهم بعدها على خراسان كلها ، كما استولى طغرلبك على الري ، ثم على أصفهان ، ثم اتخذ الأخيرة قاعدة لدولته .

وفي العام 432 هـ ، يظهر السلاجقة كقوة جديدة على الساحة السياسية بعد تعاظم نفوذهم . وقد بدأ سلطان السلاجقة في التوسع باستيلائهم على قطاعات عريضة ببلاد فارس ، ثم تمكنوا في النهاية من بسط نفوذهم على بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية .

أثناء تعاظم قوة السلاجقة يتوفى السلطان جلال الدولة بن بويه عام 435هـ ؛ ليخلفه السلطان " أبو كاليجار " . وفي العام التالي (436هـ) يدخل أبو كاليجار بغداد ويخلع على قادة الجيوش ومنهم أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري .

وكان أبو الحارث أرسلان – القائد التركي – مملوكاً لرجل من مدينة بسا ، فُعرف بالبساسيري .

وفي عام 440هـ يُتوفى الملك أبو كاليجار ، ويتولى ابنه الملك الرحيم مكانه .

ويشهد عام 446هـ بداية تمرد القائد البساسيري بعد خلافات ومشاحنات بينه وبين رئيس الرؤساء .

وعن ازدياد خطر البساسيري يروي ابن كثير عن أحداث عام 447هـ :

" كان أرسلان التركي المعروف بالبساسيري قد عظُم أمره واستفحل لعدم إقرانه من مقدمي الأتراك واستولى على البلاد وطار اسمه وخافته أمراء العرب والعجم ، ولم يكن للخليفة قطع ولا وصل دونه ، ثم صح عند الخليفة سوء عقيدته وشهد عنده جماعة من الأتراك أنه عازم على نهب دار الخلافة وأنه يريد القبض على الخليفة " .

وعندما أحس الخليفة بخطر البساسيري أرسل إلى طغرلبك السلجوقي يستنجد به فدخل الأخير بغداد سنة 447 ؛ ليأمر الخليفة بالخطبة لطغرلبك على منابر بغداد ، واعتقل أبو كاليجار .

وهكذا كان دخول طغرلبك بغداد إعلاناً رسمياً بسقوط الدولة البويهية ، وقيام الدولة السلجوقية محلها في الوصاية على الخلافة العباسية .

وتدعيماً لأواصر العلاقة السياسية الجديدة يتزوج الخليفة خديجة خاتون – بنت داود أخي السلطان طغرلبك .

ويبدو أن السلطان طغرلبك أراد بز أقرانه ممن حكموا بغداد فطلب ابنة الخليفة للزواج وامتنع الخليفة عن تلبية رغبة السلطان في أول الأمر ، ثم ما لبث أن رضخ لذلك .

ولم يطل الأجل بطغرلبك ، إذ سرعان ما تُوفي في سنة 455هـ .

بوفاة السلطان السلجوقي طغرلبك ينتقل حكم الدولة السلجوقية إلى ابن أخيه ألب أرسلان .

وتبدأ الدولة السلجوقية (السنية) بقيادة ألب أرسلان بشن حرب على الدولة الفاطمية (الشيعية) ، فيقوم ألب أرسلان بالاستيلاء على حلب وشمال الشام ، ويقطع خطبة الخليفة الفاطمي ، ويأمر بالخطبة للخليفة العباسي السني .

أما البساسيري ، فقد خرج من بغداد ليعود إليها عام 450هـ . وكان قد عمل قبل ذلك على الوقيعة بين طغرلبك وبين أخيه " ينال " ، فانشغل طغرلبك بذلك .

وعلى جانب آخر أرسل البساسيري إلى الخليفة الفاطمي بمصر يطمعه في ديار الخلافة العباسية . وبالفعل يدخل البساسيري بغداد ويقطع الخطبة لبني العباس ليحل محلهم

الفاطميون ؛ ليرتفع الأذان الشيعي على منابر بغداد السنية . ودام الحال كذلك طيلة عام كامل .

ثم فرغ السلطان طغرلبك السلجوقي من أمر أخيه ، فعمل على قتال اليساسيري ، فنال منه وقتله ، وعادت الرايات العباسية ترفرف ثانية على بغداد بفضل السلطان السلجوقي (السني) .

وعلى الجانب الآخر ، أي الجانب المذهبي تبدأ الدولة السلجوقية السنية في التصدي للفكر الشيعي ، فيقوم " أبو الحسن بن علي قوام الدين نظام الملك الطوسي " ، وزير ألب أرسلان المعروف باسم " نظام الملك " بإنشاء المدارس لتدريس المذهب السني ، وهي المدارس التي عُرفت باسمه أي " المدارس النظامية " ، وكانت أول مدرسة أنشأها ببغداد عام 457هـ .

وفي سنة 465هـ يُقتل السلطان السلجوقي ألب أرسلان .

وفي قتله قصة يرويها ابن الأثير على النحو التالي : " في أول هذه السنة قصد السلطان ألب أرسلان ، واسمه محمد ، وإنما غلب عليه ألب أرسلان ما وراء النهر ، وصاحبه شمس الملك تكين ، فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيف وعشرين يوماً ، وعسكره يزيد على مائة ألف فارس ، فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي في سادس ربيع الأول ، وحُمل إلى قرب سريره مع غلامين ، فتقدم أن تُضرب له أربعة أوتاد وتُشد أطرافه إليها ، فقال له يوسف : يا مخنث ! مثلي يُقتل هذه القتلة ؟ فغضب السلطان ألب أرسلان ، وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين : خلياه ! ورماه بسهم فأخطأه ، ولم يكن يخطئ سهمه ، فوثب يوسف يريده ، والسلطان على سُدة ، فلما رأى يوسف يقصده قام عن السدة ونزل عنها ، فعثر ، فوقع على وجهه ، فبرك عليه يوسف وضربه بسكين – كانت معه – في خاصرته ، وكان سعد الدولة واقفاً فجرحه يوسف أيضاً جراحات ، ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى ، وضرب بعض الفراشين يوسف بمرزبة على رأسه ، فقتله وقطعه الأتراك " .

وفي شهر شعبان من عام 467 هـ يتوفى الخليفة القائم بأمر الله .

ناصر الدنيا والدين : ابن خمسٍ وستين

المقتدي بأمر الله

467 – 487 هـ

هو أبو القاسم عبد الله ، حفيد الخليفة السابق . وقد حدث في نفس عام تولية المقتدر أن استرد الخليفة الفاطمي نفوذه في مكة فأعيدت الخطبة باسمه . ولكنه بعد ذلك بعام يفقد دمشق لتنضوي تحت لواء العباسيين .

بعد مقتل السلطان السلجوقي ألب أرسلان ، خلفه ابنه " ملكشاه " في حكم الدولة السلجوقية ، الذي بادر بتفويض الأمر إلى وزيره نظام الملك ، ولقبه بالأتابك أي بالأمير الوالد . وكان أن واصل السلطان السلجوقي حربه ضد النفوذ الشيعي – الفاطمي ، فاستولى قائده أتسز على دمشق سنة 468هـ ، ثم عين أخاه تتش ملكاً على بلاد الشام يتوارثها أبناؤه من بعده .

وفي عام 474 هـ يطلب الخليفة المقتدي الزواج من ابنة السلطان ملكشاه ؛ ووافق الخليفة على شرط أم العروس أن يكون لها وحدها ... فلا "زوجة ولا سرية سواها !" .

ويصف ابن كثير موكب زفاف ابنة السلطان إلى دار الخلافة على النحو التالي :

" نُقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي ، غالبها أواني الذهب والفضة ، وعلى أربع وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة ، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة ، فيها أنواع الجواهر والحلي ، وبين يدي البغال ثلاث و ثلاثون فرساً عليها مراكب الذهب ، مرصعةً بالجواهر ، ومهد عظيم مجلل بالديباج الملكي عليه صفائح الذهب مرصع بالجوهر (...) ، ثم جاءت الخاتون ، ابنة السلطان زوجة

الخليفة ، بعد الجميع ، في محفة مجللة ، وعليها من الذهب والجواهر ما لا تحصى قيمته ، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية تركية ، بالمراكب المزينة العجيبة مما يبهر الأبصار ، فدخلت دار الخلافة على هذه الصفة (...) وكانت ليلة مشهودة للخليفة هائلة جداً " .

ولكن ما يلبث أن ينقلب السلطان على الخليفة ويطلب منه مغادرة بغداد ويستمهله الخليفة مدة شهر واحد ، ولكن السلطان يجيبه : " ولا ساعة ! " .

ولكن الأقدار شاءت أن يموت السلطان ملكشاه عام 485 هـ ؛ ليدب صراع على السلطة داخل البيت السجوقي . فقد بذلت زوجة السلطان تركان خاتون كل وسعها لتنصيب ابنها محمود مكان أبيه ملكشاه ، كما طلب تاج الدولة تُتُش " أخو ملكشاه " السلطنة لنفسه ، ولكن الجنود وعلى رأسهم القائد آق سنقر ينحازون إلى أخي محمود الآخر الذي يُدعى بركيارُق ، وبايعوه بخلافة أبيه .

***

obeikandl.com

اغتيال نظام الملك

كان نظام الملك – الوزير السلجوقي - أهم أهداف جماعة الحشاشين الإسماعيلية . فقد كان هذا الوزير أبرز شخصيات عصره وأكثرها تأثيراً في مجريات أمور السياسة والحكم ، بل كان أيضاً أشد المناهضين للمد الشيعي .

وهناك أسطورة تبرر اغتيال الحشاشين لنظام الملك ، فتروى الأسطورة أن نظام الملك وعمر الخيام ، وحسن الصباح – زعيم فرقة الحشاشين الإسماعيلية – كانوا أصدقاء في الصبا ، وكانوا قد تعاهدوا على مساعدة كل منهم للآخر في حال وصول أحدهم إلى منصب مؤثر . فلما صار نظام الملك وزيراً خذل صديق صباه حسن الصباح فعمل الأخير على قتله . أما الرواية التاريخية فتقول بأن نظام الملك قد أعدَم أحد زعماء جماعة الحشاشين فاعتُبِرَ ذلك سبباً مباشراً لاغتياله . وقد كان دعاة الشيعة الإسماعيلية يبثون دعايتهم الدينية في المراكز الرئيسة داخل العالم السني والسلجوقي ؛ مما تسبب في نشوب صراع دموي بين فرقة الإسماعيلية والدولة السلجوقية السنية وعلى رأسها الوزير العظيم " نظام الملك " . وسرعان ما لفت نشاط الحشاشين وزعيمهم حسن الصباح انتباه الوزير نظام الملك ، الذي أمر جنوده باعتقاله ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، واستطاع الصباح الفرار .

وكان السلاجقة قد قاموا بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الإسماعيلي ، فأرسل السلطان ملكشاه حملتين ضد ألموت وقُهستان ، ولكن الحملتين أمكن صدهما .

ثم ارتفع الحصار عن المركز الإسماعيلي في قهستان عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان ملكشاه .

وقد وقع الحادث الأول من هذا القبيل في مدينة صغيرة على مسافة ليست بعيدة من الري وقم ، فكان أن قام السلاجقة باعتقال ثمانية عشر إسماعيلياً ، ولكن بعد إطلاق سراحهم حاولوا تجنيد مؤذن جامع هذه المدينة ، فلما رفض الرجل خشى هؤلاء أن

يشي المؤذن بهم فقتلوه ، فلما بلغت أنباء هذا الاغتيال الوزير نظام الملك أعطى أوامره الشخصية بإعدام زعيم الجماعة ، وكان نجاراً يُدعى طاهر ، وقد أُعدم طاهر ومُثل به بل وسحلت جثته في ساحة السوق . وكان أبو طاهر هذا أول زعيم إسماعيلي يتم إعدامه حسب رواية ابن الأثير .

وفي تلك الأثناء أحرز الإسماعيليون أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار ينسب إليهم أي فن الاغتيال . وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه .

وقد دبر حسن الصباح لهذه الجريمة بعناية . وفي الحقيقة كان الخلاص من هذا الوزير العظيم أمراً ضرورياً وحاسماً بالنسبة لفرقة الإسماعيلية ، لما كان يمثله نظام الملك من خطر حقيقي على هذه الفرقة الشيعية .

وعن مقتل نظام الملك نقرأ رواية المؤرخ رشيد الدين التي تضمنها كتاب الحشاشون :

" إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يصيد (...) هدفاً كبيراً كنظام الملك، ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت . وبهذا العمل ذاع صيته وأرسى أسس الفدائية . قال : مَن معكم يخلص هذه الدولة من شرور نظام الملك الطوسي ؟ فوضع رجل يُسمَّى أبا طالب أراني يده على صدره علامة الموافقة .

وفي ليلة 12رمضان من عام 485 هـ ، وفي منطقة ساهمنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو مختفٍ في ثياب الصوفيين إلى محفة نظام الملك ، الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمه ، وطعنه بسكين ، وبهذه الطعنة نال الرجل الشهادة . وبهذا كان نظام الملك أول مَن قتله الفدائيون " .

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة ، أدت – في حرب مرعبة محسوبة – إلى إنزال الموت المفاجئ بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام ورجال دين أدانوا أو وجهوا سهام نقدهم إلى معتقدات فرقة الإسماعيلية الشيعية .

***

وفي سنة 487 هـ يُتوفى الخليفة المقتدي بأمر الله عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين .

ولما كانت وفاة المقتدي مفاجئة ، فقد أوحت هذه المفاجأة باغتياله بالسم ، وهو ما يرويه ابن الأثير على النحو التالي :

" وكان أُحضر عنده تقليد السلطان بركيارُق ليُعَلِّم فيه ، فقرأه ، وتدبره ، وعلَّم فيه ، ثم قُدم إليه طعامٌ ، فأكل منه ، وغسل يديه ، وعنده قهرمانته شمس النهار ، فقال لها : " ما هذه الأشخاص التي دخلت عليَّ بغير إذنٍ ؟ " ، قالت : " فالتفتُ فلم أرَ شيئاً ورأيته وقد تغيرت حالته ، واسترخت يداه ورجلاه ، وانحلت قوته ، وسقط إلى الأرض ، فظننتها غشية قد لحقته ، فحللت أزرار ثوبه ، فوجدته وقد ظهرت عليه أمارات الموت ، ومات لِوَقْتِهِ " .

***

obeikandl.com

طِفْلَان يَحْكُمَان الشِّيْعَة وَالسُّنَّة

المستظهر بالله

487– 512 هـ

هو أبو العباس أحمد ، تولى بعد وفاة أبيه المقتدي بالله . وكان عمره حينذاك ستة عشر عاماً . وفي تلك السنة 487 هـ يموت الخليفة الفاطمي المستنصر بالله .

وكان المستنصر قد خلف أباه الظاهر عام 427 هـ ، وهو مازال بعد طفلاً في السابعة من عمره . وقد انتشرت في عهده الفتن وسادت الفوضى . وقد لعبت أمّ الخليفة دوراً أساسياً في إذكاء نار الفتنة العرقية بين طوائف الجنود المختلفة . فقد مالت إلى جند السودان وحرضتهم على قتال الجند الأتراك . ولكن الغلبة في النهاية كانت للأتراك بزعامة ناصر الدولة الذي زاد نفوذه وطغى على الخليفة ، حتى إنه شاء إلغاء الخلافة الفاطمية (الشيعية) والدعوة لبني العباس (السنيين) . كما شهد العام نفسه الذي تولى فيه الخليفة العباسي المستظهر أيضاً وفاةَ بدر الجمالي .

وكانت مصر في عهد المستنصر الفاطمي قد تعرضت لأزمات اقتصادية طاحنة ، كما أدى انخفاض مستوى ماء النيل إلى غلاء الأسعار ، وتفشي الأمراض والأوبئة .

ومن مظاهر تدهور أحوال البلاد في عهد المستنصر أنه في فترة لا تزيد عن ستة عشر عاماً تولَّى 54 وزيراً . ولم ينصلح حال دولة الخلفاء الفاطميين بمصر إلا بعد استدعاء المستنصر للقائد بدر الجمالي – صاحب عكا – ليكلفه بالقضاء على الفتن وإصلاح أحوال البلاد : " وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ؟ فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلـك مصلحاً للـفساد مدمراً أهل العناد " .

كان هذا نص المرسوم الذي قلد به الخليفة الفاطمي القائد بدر الجمالي الوزارة ، ولقبه " السيد الأجل أمير الجيوش " .

وكان أن أظهر هذا القائد – الأرمني الأصل – همة عالية في في ضرب مراكز القوى في الدولة الفاطمية ، فأعاد إليها الأمن والنظام ، وكذلك هيبتها المفقودة بإعادة الأماكن المقدسة بالحجاز إلى النفوذ الفاطمي مرة أخرى . وشهد صعود نجم بدر الجمالى تقلص نفوذ الخليفة الفاطمي فصار الوزير هو المتحكم في مصير الدولة وأحوالها .

ومن المفارقات أنه في العام نفسه تولَّى الخليفة العباسي المستظهر (487هـ) يُتوفى بدر الجمالي لتنتقل السلطة من بعده إلى ابنه الأفضل .

***

فإذا ما انتقلنا إلى الضفة الأخرى أي الدولة السلجوقية (السنية) المتحكمة في أمور الخلافة ببغداد نجد أن عام 490هـ يشهد اغتيال السلطان أرغون وهو ابن السلطان ألب أرسلان وأخو السلطان ملكشاه صاحب خراسان ، التي يتولاها من بعده السلطان بركيارُق .

وعن سبب قتله يقول ابن الأثير : " إنه كان شديداً على غلمانه ، كثير الإهانة لهم والعقوبة ، وكانوا يخافونه خوفاً عظيماً ، فاتُّفِقَ أنه طلب غلاماً له ، فدخل عليه وليس معه أحد ، فأنكر عليه تأخره عن الخدمة ، فاعتذر ، فلم يقبل عذره ، وضربه ، فأخرج الغلام سكيناً معه وقتله . وأخذ الغلام فقيل له : لِمَ فعلت هذا ؟ فقال : لأريح الناس من ظلمه " .

أما عام 492هـ فيشهد استيلاء الصلبيين على بيت المقدس ويُروى أنهم قتلوا أثناء ذلك 70ألف نفس .

***

وفي سنة 495هـ كانت وفاة الخليفة الفاطمي المستعلي بالله ، الذي كان قد تولى بعد المستنصر ، بالرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر للخليفة المتوفى ، صاحب الحق في الإمامة طبقاً للعقيدة الإسماعيلية .

وكان الوزير الأفضل ، ابن بدر الجمالي قد رأى استبعاد " نزار " الابن الأكبر للمستنصر ، وتولية أخيه المستعلي الذي كان قد تزوج أخت الوزير ، وقد أدَّى ذلك إلى انشقاق الدعوة الإسماعيلية إذ ناصر فريقٌ منهم " نزار " ، بينما وقف فريق آخر خلف المستعلي .

وبعد وفاة المستعلي خلفه ابنه أبو علي المنصور ، وهو لم يزل بعد في الخامسة من عمره ، وتلقب بالآمر بأحكام الله .

وفي سنة 498 يتوفى السلطان بركيارُق ليتولَّى مكانه ابنه جلال الدولة ملكشاه ، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره . ولكن عمه محمد بن ملكشاه يخرج عليه ويحل محله في السلطة ، وفي هذه الآونة يشتد خطر الباطنية فيحاربهم السلطان محمد ، ويستطيع في سنة 500 هـ الاستيلاء على قلعتهم في أصبهان ، ويقتل شيخهم ويمعن في الانتقام منه فيقوم بسلخ جلد شيخ الباطنية هذا ويحشوه تبناً .

***

اغتيال ابن نظام الملك

وفي السنة نفسها (500 هـ) كان الباطنية قد قاموا أيضاً باغتيال فخر الملك الابن الأكبر للوزير العظيم نظام الملك في نيسابور ، وهي الحادثة التي يرويها ابن الأثير على النحو التالي : " ... قُتل فخر الملك أبو المظفر علي بن نظام الملك ، يوم عاشوراء ، وكان أكبر أولاده ، وقد ذكرنا سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة وزارته للسلطان بركيارُق ، فلما فارق وزارته قصد نيسابور ، وأقام عند الملك سنجر بن ملكشاه ، ووُزر له ، وأصبح يوم عاشوراء صائماً ، وقال لأصحابه : رأيت الليلة في المنام الحسين بن علي ، عليه السلام ، وهو يقول : عجِّل إلينا ، وليكن إفطارك عندنا . وقد اشتغل فكري به ، ولا محيد عن قضاء الله وقدره ! وقالوا له : يحميك الله ، والصواب ألا تخرج اليوم والليلة من دارك .

فأقام يومه يصلي ، ويقرأ القرآن ، وتصدق بشيء كثير . فلما كان وقت العصر خرج من الدار التي كان بها يريد دار النساء ، فسمع صياح متظلم ، شديد الحرقة ، وهو يقول : ذهب المسلمون ، فلم يبقَ مَن يكشف مظلمة ، ولا يأخذ بيد ملهوف ! فأحضره عنده رحمة له ، فحضر فقال : ما حالك ؟ فدفع إليه رقعة ، فبينما فخر الملك يتأملها إذ ضربه بسكين فقضى عليه ، فمات ، فحمل الباطني إلى سنجر ، فقُرِّر ، فأقر على جماعة من أصحاب السلطان كذباً ، وقال : إنهم وضعوني على قتله ، وأراد أن يُقتلوا بيده وسعايته ، فقُتل من ذكر ، وكان مكذوباً عليهم ، ثم قُتل الباطني بعدهم . وكان عمر فخر الملك ستاً وستين سنة " .

ثم يعود الباطنية مرةً أخرى ليثأروا لاغتيال شيخهم ، فيقتلون شيخ الشافعية في بغداد . وفي دمشق يقوم الباطنية باغتيال مودود صاحب الموصل الذي تصدى لحرب الفرنجة (الصليبيين) ، فاغتالوه أثناء أدائه لصلاة الجمعة ، فكتب ملك الفرنجة رسالة بليغة

إلى صاحب دمشق جاء فيها : " وإن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها بي " .

وفي سنة 507هـ يُتوفى السلطان محمد السلجوقي ، وكان بركيارُق قد جمع جنوده ليحارب خاله إسماعيل . فلما انهزم الأخير توجه إلى أصبهان ، فأكرمته تركان خاتون ، وأقامت الخطبة باسمه ، ولكن الأمراء لم يرضوا عن ذلك ، فلما أوجس إسماعيل خيفة من الأمراء فارقهم ، ولجأ إلى أخته زبيدة والدة بركيارُق ، ولكن عندما علم الأمراء بنيته بأنه يريد السلطنة ، وقتل بركيارُق كذلك ، وثبوا عليه فقتلوه ، وأعلموا أخته خبره فسكتت عنه " .

وفي سنة 512 مات الخليفة المستظهر بالله .

***

obeikandl.com

اغتيال الخليفتين المسترشد وابنه الراشد

المسترشد بالله

512-529 هـ

هو أبو المنصور الفضل ، ابن الخليفة السابق المستظهر بالله ، وكان أبوه عهد إليه بالولاية أثناء حياته .

في سنة 513هـ : تنشب عدة معارك بين قطبي البيت السلجوقي ، السلطان سنجر بن ملكشاه والسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ؛ لتنتهي بانتصار سنجر والخطبة له ببغداد .

وفي سنة 514 هـ تعود الفتنة إلى بيت ملكشاه ، ولكن هذه المرة ينشب الصراع بين السلطان محمود وأخيه السلطان مسعود لينتصر محمود في نهاية الأمر .

وفي سنة 515 هـ يقطع السلطان مدينة الوصل وتوابعها لآقسنقر البرسقي ، وهو الذي سيكون لنسله أعظم الشأن فيما بعد .

وفي العام نفسه وفي نهاية شهر رمضان يتم اغتيال وزير الدولة الفاطمية الأفضل بن بدر الجمالي ، فقد قتله نفر من الإسماعيلية النزارية ، وهو في طريقه إلى دار الملك بالفسطاط . فلما حُمل إلى داره جاءه الخليفة الآمر بأحكام الله ليسأله عن أمواله فدله عليها .

وبينما يقول ابن الأثير إن الخليفة بقي : " في داره نحو أربعين يوماً ، والكُتّاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً أموال الأفضل " ، يذكر ابن كثير ما خلّفه الأفضل من ثروة فيقول : " ترك الأفضل من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار مكررة ، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي ، ودواة ذهب فيها جوهرة باثني عشر ألف دينار ، ومائة مسمار ذهب زنة كل مسمار مائة مثقال (...) على كل مسمار منديل مشدود بذهب ، كل منديل على لون من ألوان ملابسه ، وخمسمائة صندوق كسوة للبس بدنه

(...) وخلّف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والمسك والطيب والحلي ما لا يعلم قدره إلا الله عز وجل، وخلف من البقر والجواميس والغنم ما يستحي الإنسان من ذكره ، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار ، وترك صندوقين كبيرين مملوءين إبر ذهب برسم النساء " .

وفي عام 516 هـ : يضيف السلطان محمود مدينة واسط لإقطاعيات آقسنقر الذي يوليها ابنه عماد الدين زنكي .

وفي العام نفسه يغتال الباطنية وزير السلطان محمود (السلجوقى) ، فذبحوه : " مثل الشاه ، فحُمل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جراحة ... " ، فجعل السلطان مكانه شمس الدين ابن الوزير نظام الملك ، الذي لم يلبث أن قُتل أيضاً ، ولكن هذه المرة على يد السلطان نفسه .

***

بزوغ نجم عماد الدين زنكي

وكان عماد الدين بن آقسنقر بن عبد الله ترغان ينتمي إلى قبائل السبايو التركمانية ، وقد حظي والده أبو سعيد آقسنقر الملقب بقسيم الدولة باهتمام المؤرخين ؛ بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية . وكان أمير الموصل هو الذي تولَّى تربية عماد الدين زنكي وتعليمه فنون الفروسية والقيادة والقتال ، فلما أتقنها وبرز فيها ترقى حتى صار مقدم عساكر مدينة واسط ، ثم ظهرت كفاءته القتالية سنة 517هـ في قتاله إلى جانب الخليفة العباسي المسترشد بالله ضد أحد الثوار الشيعة .

وفي سنة 519 هـ : يَقتل الخليفة الفاطمي وزيره أبا عبد الله البطائحي ، الملقب بالمأمون ولم يكتفِ الخليفة بقتل وزيره ، بل صلبه هو وإخوته ، وذلك جزاءً له على تآمره على مولاه ومحاولته الإطاحة به .

وفي عام 520 هـ : يهاجم أحد عشر فرداً من الباطنية آقسنقر البرسقي صاحب الموصل ويقتلونه أثناء أدائه لصلاة الجمعة بالجامع . أما سبب قتله فيذكره ابن الأثير على النحو التالي : " ... أن تاج الدولة تُتُش لما عاد من أذربيجان منهزماً لم يزل يجمع العساكر ، فكثرت جموعه ، وعظم حشده ، فسار في هذا التاريخ عن دمشق نحو حلب ليطلب السلطنة ، فاجتمع إلى قسيم الدولة آقسنقر ، وبوزان ، وأمدهما ركن الدين بركيارُق بالأمير كربوقا الذي صار فيما بعد صاحب الموصل ، فلما اجتمعوا ساروا إلى طريقه ، فلقوه ... واقتتلوا ، واشتد القتال ، فخامر بعض العسكر الذين مع آقسنقر ، فانهزموا ، وتبعهم الباقون ، فتمت الهزيمة ، وثبت آقسنقر ، فأُخذ أسيراً ، وأُحضر عند تتش ، فقال له : لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ قال : كنت أقتلك ! فقال له : أنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليَّ . فقتله صبراً " .

ولقد اشتهر آقسنقر بسيرة طيبة ، فقال عنه ابن الأثير : " وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته " ، وقال عنه ابن كثير : " بأنه كان من أحسن الملوك سيرة " ، وكان آقسنقر من أصحاب السلطان ملكشاه ، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً حتى إنه منحه لقب قسيم الدولة ، وقد كان أبرز قواده . وقد ولاه السلطان ملكشاه ولاية حلب ، فاستولى على حمص وحصن افاميه وفرض طاعته على صاحب شيراز . وقد ظلت العلاقة الطيبة قائمة بين آقسنقر وملكشاه ، فلما تُوفيَ ملكشاه عام 485 هـ ، طلب تُتُش السلطنة لنفسه ، ولكن آقسنقر فضَّل أن ينحاز إلى بكيارُق الابن الآخر لملكشاه وفاءً منه لملكشاه .

***

وفي العام نفسه يتفق الخليفة المسترشد مع السلطان محمود على قتال السلطان سنجر الذي استطاع إقناع السلطان محمود بالعدول عن التآمر مع الخليفة ، ونتيجةً لتبدل موقف السلطان محمود رفض الخليفة دخول محمود بغداد الذي دخلها عنوة ، وانتهى الأمر بالصلح بين السلطان والخليفة .

وفي عام 521 يُتوفى محمد ، ابن انوشتكين خوارزمشاه ، ليتولى ابنه اتسز أمر ولاية إقليم خوارزم .

وفي سنة 524 يقوم بعض الموالين للنزاريين باغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ليتولَّى من بعده الحافظ لدين الله .

وفي سنة 525 يُتوفى السلطان السلجوقي محمود ليتولَّى بعده ابنه داوُد ، ولكن عمه مسعود يخرج عليه ليصير هو السلطان ، ويخُطب باسمه في بغداد .

وفي سنة 526 يقوم الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بالتخلص من ابنه حسن ، فيقتله بالسم ، وكان الحافظ قد جعل ابنه حسن هذا وزيراً له ، فاستبد حسن بالأمر وزاد فيه حتى إنه استمرأ قتل الأمراء فيُروَى أنه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً . مما جعل الأمراء يثورون ويطالبون الخليفة بتسليمه إياهم وإلا قتلوه هو نفسه ، كما شاع أن الحسن يميل إلى مذهب السنة ، وهكذا لم يجد الخليفة مفراً من الخلاص من ابنه فقتله بالسم .

***

وفي عام 529هـ يتطور الخلاف بين السلطان السلجوقي مسعود وبين الخليفة العباسي المسترشد بالله إلى حرب ، ويصير بينهما قتال ينتهي بوقوع الخليفة في الأسر ، إلا إن السلطان سنجر يأمر ابن أخيه مسعود بإعادة الخليفة إلى مكانه ومكانته ، فرضخ مسعود . ويروي السيوطي أن سنجر أرسل إلى مسعود رسولاً جاء في صحبته نفر من الباطنية هاجموا خيمة الخليفة وقتلوه .

وهو ما يرويه أيضاً ابن كثير في " البداية والنهاية " على النحو التالي :

" جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يستحثه على الإحسان إلى الخليفة ، وأن يبادر إلى سرعة رده إلى وطنه ، وأرسل مع الرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد . فصحب الجيش عشرة من الباطنية ، فلما وصل الجيش حملوا على الخليفة فقتلوه في خيمته وقطعوه قطعاً " .

الخليفة الراشد

529 – 530 هـ

هو أبو جعفر المنصور ، ابن الخليفة المسترشد ، وقد بويع له بعد اغتيال أبيه وكان الراشد قد غادر عاصمة الخلافة بغداد بعد دخول السلطان مسعود إليها ، فقام بخلعه بعد حصوله على فتوى بذلك من أهل العلم والرأي ، وأجلس مكانه عمه محمد ، ابن الخليفة المستظهر الذي تلقب بالمقتفي لأمر الله .

وقد انتهى أمر الخليفة الراشد إلى القتل بالسكاكين ، على حد تعبير جلال الدين السيوطي .

أما ابن كثير فيزيد على رواية قتل الخليفة ما يلي : " فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ، ودخلوا عليه ومثَّلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً " .

***

obeikandl.com

" وَلَمْ يَبْقَ إلا الأَثَـاث فَأَخَذتهُ كُلهُ "

المقتفي لأمر الله

530 – 555 هـ

وهو أبو عبد الله محمد ، أخو الخليفة السابق المسترشد ، وابن الخليفة المستظهر .

وفي عهد المقتفي تبدلت الحال وصارت الكلمة النافذة للخليفة بعد أن وهنت قوة السلاطين ، وذلك على نقيض بداية عهد هذا الخليفة . فما أن تولى المقتفي حتى قام السلطان مسعود بمصادرة ممتلكاته : " فأخذ جميع ما في دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق ، ولم يترك في اصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس ، وثمانية أبغال برسم الماء ، فيقال : إنهم بايعوا المقتفي على ألا يكـون عنده خيـل ، ولا آلـة سفر " .

ولم يكتفِ السلطان مسعود بذلك ، إذ سرعان ما استولى على جميع متعلقات الخليفة ، ولم يترك له إلا العقار الخاص به ، بل إنه طمع في المزيد ، وأرسل وزيره يطلب من الخليفة مائة ألف دينار ، فقال المقتفي : " ما رأينا أعجب من أمرك ! أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى ، وأن الراشد ولِيَ ففعل ما فعل ، ورحل وأخذ ما تبقى ، ولم يبقَ إلا الأثاث ، فأخذته كله ، وتصرفت في دار الضرب ، وأخذت التركات والجوالي ، فمِن أي وجه نقيم لك هذا المال ؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها ... " .

وفي سنة 543 ينشب القتال بين الصليبيين ونور الدين محمود زنكي ، صاحب حلب ، لكن نور الدين وأخوه غازي ، صاحب الموصل ، يتصديان لهجوم الصليبيين ويلحقان الهزيمة بهم .

***

في عام 544هـ : يموت الحافظ الخليفة الفاطمي بمصر ، ويتولى مكانه ابنه الظافر إسماعيل ، وكان نجم الدولة الفاطمية وخلفاؤها قد أخذ في الأفول ، وصاحب ذلك ازدياد نفوذ الوزراء ، ويتجلى هذا في امتناع الخليفة الحافظ في آخر عهده عن اتخاذ وزراء له . وهو ما يشهد به ابن كثير ، إذ يقول : " إن الوزارة في مصر كانت لمن غلب ، والوزراء كالمتملكين وقلَّ أن وليها أحد بعد الفضل بن بدر الجمالي إلا بحرب وقتل ، وما شاكل ذلك " .

وبعد تولي الظافر ، قام باتخاذ " ابن مصال " وزيراً ، فيعيد الوزير الأمور إلى نصابها ، ولكن سرعان ما تعود الفتنة لتضرب سلطان الفاطميين مرة أخرى ، إذ إن والي الإسكندرية والبحيرة ، وكان يُدعى ابن السلار قام بالزحف على القاهرة ، وأرغم الخليفة على إسناد منصب الوزارة إليه . وانتهت الفتنة بمقتل الوزير السابق ابن مصال .

ومن المدهش أن ابن السلار هذا كان سنيَّ المذهب .

ولكن ابن السلار أيضاً يُقتل في عام 548هـ ، ثم اجتزَّت رأسه وحملت إلى قصر الخليفة الظافر . وكان أحد الطامعين في منصب الوزارة ، ويُدعى عباس الصنهاجي ، هو الذي دبَّر مؤامرة اغتيال ابن السلار ، وبالفعل تذهب الوزارة إلى عباس الصنهاجي . ولم يكن عباس هذا سوى ربيب ابن السلار .

وكان العادل بن السلار – وزير الخليفة الفاطمي الظافر بالله قد تزوج امرأةً كان لها ولدٌ يُدعى عباس . وكان العادل يحسن إلى عباس هذا ويحبه ، ولكن سرعان ما انقلب عباس على زوج أمه فقتله وتولَّى بعده . وقد كان ذلك بإيعاز من الأمير أسامة بن المنقذ الذي لم يكتفِ بالخلاص من الوزير ، بل شاء التخلص من الخليفة نفسه ، فكان أن أسرَّ إلى عباس أن الخليفة يلوط بابنه نصر . وكان الخليفة الفاطمي بالفعل يختص نصر بمحبته ، ويؤثره ولا يطيق فراقه فلاكت الألسنة علاقتهما . وكان أن استجاب عباس لكلام ابن المنقذ .

فذات يومٍ التقى أسامة بن المنقذ الوزيرَ عباس وابنه نصر ، فلمَّا بادره نصر بأن الخليفة قد أقطعه " قليوب " ردَّ ابن المنقذ ساخراً : " ما هي في مهرك بكثير ! " ، فغلى الدم في عروق عباس وحمي غضب ابنه كذلك ، مما أدى إلى اتفاق الجميع على قتل الخليفة الظافر ، وكانت المؤامرة أن يستدرج " نصر" الخليفة ، فدعاه إلى داره ، وما إن دخلها حتى قتله هو وصحبته . ومضى عباس إلى قصر الخليفة ونهب القصر وقتل أخوين للظافر ، أما ثالثهما فكان صغير السن له من العمر خمس سنوات ، فكان أن : " حمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس " ، على حد قول ابن كثير وكان ذلك سنة 549 هـ .

***

أما الخلافة العباسية ، فقد شهدت استقراراً دام حتى نهاية عصر المقتفي الذي انتهى بموته عام 555هـ ، وكان المقتفي واحداً من خلفاء بني العباس الأقوياء الذي يصفه ابن كثير بقوله :

" هو أول من استبدَّ بالعراق منفرداً عن السلطان ، (...) وتمكَّن في الخلافة ، وحكم على العسكر والأمراء " .

أما السيوطي ، فيورد كلام ابن الجوزي في المقتفي كالتالي : " من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ، ولم يبقَ له منازع ، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك ، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة " .

***